زينب شرف الدين

قبل صلاة الفجر

رواية

دار الساقي

آفاق AFAC

محترف

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

زينب شرف الدين

قبل صلاة الفجر

دار الساقي

كيف تكتب رواية
محترف

آفاق AFAC

© دار الساقي 2016
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-908-5

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866 1-961+، فاكس: 443 866 1-961+
email: info@daralsaqi.com

الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13–5290، لبنان
هاتف: 901 218 1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

أنجزت هذه الرواية في اطار "محترف نجوى بركات" في دورته الثالثة (2015–2014)
بالشراكة مع برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في دورته الأولى (2015–2014).

"محترف نجوى بركات"
شارع صادر، برج حمود، بيروت، لبنان
هاتف: 695 248 1-961+
email: najwa@free.fr

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

مقدّمة الصندوق العربي للثقافة والفنون "آفاق"

بعد مرور تسع سنوات على تأسيسه وعلى دعمه أكثر من سبعمئة فنّان وكاتب عربي، قرّر الصندوق العربي للثقافة والفنون – آفاق– خوض تجربة جديدة من خلال برنامج آفاق لكتابة الرواية. منذ العام ٢٠٠٧، موّلت آفاق ٩٤ مشروعاً أدبياً، تنوّعت بين الرواية، قصص للأطفال، النصوص المسرحية، الأبحاث والدراسات، نشر كتيبات ومجلات، الترجمة، إقامة ورش كتابة وإنشاء مجلات ومواقع الكترونية أدبية.

هذه المروحة الواسعة من المشاريع أغنت مكتبة الصندوق وأتاحت له دعم تجارب كتّاب، مكرّسين وشباب، وعاملين وناشطين في مجال الأدب في كافة أنحاء العالم العربي. وانطلاقاً من إعادة التقييم الدائمة التي يجريها الصندوق لبرامجه ولحاجات الساحة الثقافية العربية، ومن تواصله الدائم مع الكتّاب والفنانين المحيطين به، جاءت فكرة برنامج كتابة الرواية للتركيز على دعم المواهب الشابة ومواكبتها والعمل بشكل مباشر مع كتّاب شباب لتمكين قدراتهم الروائية والإبداعية، والغوص معهم في نظرتهم للأدب وللعمل الروائي الذي يشتغلون عليه. وقد تم اختيار محترف نجوى

بركات لإنشاء شراكة معه لتنفيذ الدورة الأولى من هذا البرنامج نظراً لخبرة الروائية اللبنانية في هذا المجال.

التزمت آفاق دعم التدريب طوال فترة الدورة من خلال إقامة ثلاث ورش عمل تجمع الكتّاب المشاركين والروائية بركات في عاصمة عربية لمدة أسبوع للعمل على المشاريع الروائية وتطويرها، فضلاً عن دعمها نشر الروايات المنجزة خلال دورة البرنامج. أثمرت هذه الدورة من برنامج آفاق لكتابة الرواية بالشراكة مع محترف نجوى بركات ثماني روايات لكتّاب من سبعة بلدان عربية وهم: أحمد الصادق من مصر، آرثر غبريال ياك من السودان، زينب شرف الدين من لبنان، سمية طه من اليمن، مصطفى عبد ربه من مصر، معن أبو طالب من الأردن، وسيم الشرقي من سوريا وسكينة حبيب الله من المغرب.

يسر آفاق المشاركة في نشر هذه الروايات وتجد في هذه المبادرة استمراراً وتأكيداً على رغبتها في دعم الفنانين العرب بكافة الوسائل المتاحة لها.

الصندوق العربي للثقافة والفنون– آفاق – مبادرة عربية مستقلة، تقدم الدعم المالي والمهني للفنانين العرب، الصاعدين والمكرّسين على حد سواء، كما للمؤسّسات الثقافية المنخرطة في دعم المشهد الثقافي والفني المعاصر في المنطقة العربية. تأسست "آفاق" في العام ٢٠٠٧ وهي ناشطة في ١٨ دولة عربية من خلال استقبالها طلبات المنح ودعمها للمشاريع سنوياً في مجالات ثقافية وفنية مختلفة.

مقدّمة مديرة المحترف

على امتداد العالم العربي، ثمة ما هو ناقصٌ اليوم في مشهدنا الثقافي، فالعصر عصر انكفاء وتراجع. لكن، أن يكون العصر هكذا، لا يبرر ولا يبرّئ أيَّ تنصّل.
قليلٌ من سخاء الأدب وسعته، لكي ننقذ البذور الشابة الواعدة من هلاكها، نهيّئ لها موعداً وتربةً، وهي لا بدّ ستنمو وتينع، عامًا بعد عام...

هذا ما كنت أحلم به وما كتبتُه عندما أطلقتُ، عام ٢٠٠٩، **محترف كيف تكتب رواية**، وقد صار يُعرف لاحقاً **بمحترف نجوى بركات**.

واليوم، بعد مرور ستة أعوام وإقامة ثلاث دورات، ربما أمكنني القول إن بعضاً من هذا الحلم قد تحقق، إذ بات في رصيد **المحترف** ١٧ رواية، لكاتبات وكتّاب شباب من مختلف الدول العربية، دخلوا معترك الساحة الأدبية من بابها العريض. فقد نشرت أعمالهم في كبريات دور النشر، ونال معظمها إعجاب الجمهور والنقاد، لا بل أن أحدها، وهو من نتاج المحترف في دورته الثانية (٢٠١٣/٢٠١٤)،

فاز أخيرا بـ"جائزة كتارا للرواية العربية"، فكان أن وقفت كاتبته الشابة، جنباً إلى جنب، مع كبار الروائيين.

والآن، مع انتهاء الدورة الثالثة التي أقيمت بين ربيعي ٢٠١٤/٢٠١٥، بالشراكة مع "آفاق"، وأمام فرحتي بولادة سبعة أعمال أولى لسبعة روائيين جدد، بودّي لو أستطيع الاكتفاء بوضع قائمة بأسمائهم وعناوين أعمالهم، لإيماني بأن الأهم والأفضل تعبيراً عن كل الجهد المبذول خلال عام كامل، هو أولاً وأخيراً، ما تقوله رواياتهم.

يعرف كل من يكتب أن علاقتي بكتّاب **المحترف** هي علاقة دم بدم، ولحم بلحم. ويعرف كلّ من عبر في **المحترف**، أنها تجربة مُضنية واستثنائية على أكثر من مستوى، فهي محنة الإبداع، امتحان الأخذ والعطاء، وانكفاء الأنا الواهِبة لصالح تفتّح الأنا الواعدة.

بودّي أخيراً أن أشدّ على أيادي كتّاب **المحترف** جميعاً، لأنهم أولوني ثقتهم، فأروني أحلامهم، وتقاسموا وإياي خبز أسئلتهم، وأسمعوني ما تلهج به قلوبهم وأرواحهم.

عسانا نكون قد نجحنا معاً في رمي حصاة صغيرة في مياه ثقافتنا الراكدة،

عساكم تكونون قد خطَطْتُم، بفضل تجربة **المحترف**، الحرفَ الأوّل من مغامرة أدبية لا تنتهي،

وعسى المستقبل يخبئ لكم ولأجيال قادمة، مزيداً من فرح الإبداع، قلقه وألقه...

الروائية نجوى بركات

إلى

أختي ندوة التي وضعت في يدي كتاباً وشعلة

ابني نادر فرحة عمري

فوفو ابنة عمي، الصديقة الرفيقة "الرفيقة" على كل الدروب

غاريث الحاضر حتى في غيابه

١

قبل أن يرنّ هاتفها الجوّال، وهي تهمّ بفتح باب شقتها الكائنة وسط زقاق مسدود في الطابق الأرضي من بناية La Rosière في الباستيل، كانت حياة نورهان سلمان متماسكة كبساط "السوماك" الأذربيجاني.

كل ما نسجته في حياتها وحاكته حولها لا يشي إلا بذلك. شقتها، حديقتها، عملها، خزانتها، وحتى أحذيتها.

على الباب من الداخل، حيث ألقت أرضاً حمل يديها، أسندت ظهرها بعد المكالمة المقتضبة التي أنهتها بكلمة واحدة، "واصلة". عبثاً حاولت أن تغمض عينيها لعلها لا ترى انعكاس ما سمعته. لكن رموشها بدأت، من دون إرادتها، ترفّ بسرعة هائلة كآلة تصوير تلتقط دون توقّف صوراً تظهر جميلة في البداية وتتحول شيئاً فشيئاً إلى أشكال مشوهة غرائبية كما في فيلم رعب بالأسود والأبيض. أمسكت برأسها تحركه يمنة ويسرة، ثم وضعت يديها على عينيها لعلّها تحجب هذا الشريط المصوّر المفزع. مادت الأرض تحتها وراحت تهوي ببطءٍ شديد بفعل اصطكاك ركبتيها، ثم شعرت بأن

منافذ جسدها قد سُدّت دفعة واحدة، كمن يحتضر.

الشعور بحاجتها الملحّة إلى التبوّل والهاتف الذي تكرّر رنينه ورائحة قطعة السمك – المنكّهة بأعشاب الشومر التي وعدت نفسها بها للعشاء مع كأس من نبيذ "سنسير" كعادتها في كلّ يوم جمعة – وقد بدأت بالتسلل إلى منافذ أنفها، أيقظها من تلاشيها.

زحفت إلى الحمام، ومثل عجوز محدودب الظهر منهكٍ رفعت نفسها بتهالك، جلست على كرسيه، بينما تابعت مخيلتها بثّ شريطها المؤلم دون رحمة. الوقت مرّ ثقيلاً بل ربما توقّف فعطّل حركة أعضائها، الانتظار عصيب فكيف به وهي لا تعلم ماذا تفعل، وهي تشعر أن جسدها بات عاجزاً عن أداء أبسط وظائفه، إنه وقت الذعر والرجاء. "شهيق... زفير... شهيق... زفير... تلقائي... طبيعي"، يأتيها صوت كلود مدرّبهاعلى تمارين التأمّل. "الألم موقّت. قد يستمر لدقائق، أو ساعة، أو يوم أو سنة، ولكنه في نهاية المطاف سوف يهدأ ويحلّ مكانه شيء آخر". رُدّت روحها إليها حين انفرجت مثانتها عن بول متقطّع مرتجف، أتبعته برشّ الماء على جسدها عشوائياً.

تنبّهت إلى الظلام المحيط بها، فأشعلت الضوء في الحمام وغرفتي شقتها الصغيرة، ثم في المطبخ والحديقة وهي تتابع الشهيق والزفير طبيعياً وتلقائياً.

على غفلةٍ منها، غيّب خبرُ الموت، الذي وصلها، نهارَ تموز الطويل، ذلكَ النهار الذي كانت تستمتع غالباً، لحظةً بعد لحظة، بتوالي رحيله. لا تعرف كم من الوقت قد مضى وهي تعبر هذا

المخاض المضني. لم تنظر إلى الساعة إذ انطرحت على المقعد الذي وضعته خلف الباب الزجاجي مواجهاً للحديقة كي تراقب المطر يلعب هناك أيام الشتاء. عاد الهاتف إلى رنينه وإصراره. آه غي! إنني حقاً عاجزة عن التلفّظ بكلمة. فكّر كما تشاء!

في الحقيقة، لا تريد أن يراها أحدٌ على هذه الحال. ما يحصل لها هو لها وحدها. لا تتذكّر أنه مرّ بها من قبل. المكالمة التي وردتها من بيروت أخرجت من أعماقها شخصاً لا يشبهها، تفاجأت بوجوده، أعلن عن وجوده مجرّد أن سمعت ميساء، صديقة الطفولة والشباب التي أصبحت صديقة العائلة، تقول: "حبيبتي نورا"، كما كانت تدعوها، "لازم تجي ع لبنان اليوم قبل بكرا، أمك بدها إياك".

"قولي يا ميساء ما تريدين أن تقوليه دون مقدمات"، خطر الكلام في ذهن نورهان دون أن تتفوّه به. فجاءها الجواب، كأن كلماتها وصلت إلى مسمع صديقتها حين صار ثقل اللحظة مشدوداً: "عمو منصور... عمو منصور... أصابته ذبحة قلبية". ميساء، من هناك، من بيت العائلة في عين المريسة سمعت "بببببب... بابا... بابا... مات؟"، فردت بحزن: "بتمنى كون معك هلق... تعي كوني معنا كلنا، مش رح يدفنوه قبل ما توصلي... بحبك نورا... مشتاقتلك كتير". "واصلة"، الكلمة الوحيدة التي قالتها نورهان قبل إنهاء المكالمة.

قبل أن تترك بيروت لمتابعة دراستها الجامعية في باريس، طلبت من ميساء شيئاً واحداً، أن تخبرها بأيّ أمرٍ جللٍ يحلّ بعائلتها على الفور ودون موارية.

اجتاحتها موجة من الأسئلة عن سبب موته المبكر، عما إذا تألم أو فزع قبل أن يغادر، هو الذي لم تره مريضاً أو خائفاً يوماً، وعما إذا راودته رغبة في أن يراها أو أن يقول لها أمراً. سألت نفسها عن الذي يحصل لها دون إرادتها، لم تقدر أن تحدّد مشاعرها من خبر موته، فجميع خلاياها دخلت في حالة من الفوضى والتشتّت.

تسلّل عرقها إلى جسدها فبلّل ثيابها الرقيقة ورشح بارداً مخترقاً عظامها. مدّت يدها إلى قدميها تتحسسهما كأنها تدرك لأول مرة أنها قد تفقد فيّ أية لحظة ما كان يبدو على الدوام بديهياً.

كقطة ترتجف من وطء اغتسالٍ فُرض عليها، توجهت إلى الحمّام. فتحت حنفية الماء الساخن فاندفعت المياه الحارة ومعها البخار الذي تسلل إلى البهو الصغير الملاصق، بينما راحت تخلع ثيابها بشكل آليّ بطيء كوقع هذا الزمن الجديد الذي سقط فجأة عليها. لم تعلقها كالعادة على المشجب النحاسيّ الذي دفعت مبلغاً مرقوماً لتشتريه من سوق البراغيث (Marché de Puces). عدّلت سخونة المياه وسلّمت نفسها لدفق مياه رحيمة حجبت، ولو لدقائق متقطعة، شريط الذعر المصرّ على إيلامها وأشاعت بعض ثقة بأن تعود وظائفها البيولوجية إلى وقعها الطبيعي. تفعل المياه ما يتوجب على عقلها أن يفعله في خدمة جسمها في مثل هذه الحالات. تسلل دفءٌ إلى مسامّها تدريجاً مبعثراً الخدر الذي فتك بها وتفلتت معه شهقة عميقة من أسفل معدتها.

وصلها من جديد رنين الهاتف خافتاً، مخترقاً صرير المياه المتدفقة على غاربها، لينبهها فقط إلى أن تفعل ما تفعله دوماً عند

استحمامها، أن تدير المياه باردةً خالصة عليها كوسيلة تنشيط دأبت على استخدامها، حتى في أيام البرد القارس. تابعت استسلامها للمياه كأن الهاتف الذي يرن بإلحاح في بهو بيتها لا يعنيها. كلما حاولت أن تغادر مغطس الاستحمام كانَ وقع المياه عليها وشعورها به كحضن يهدهدها ويحتوي بعضاً من اضطرابها، يشدّها مرةً بعد أخرى. ما تحتاج إليه فعلاً الآن هو البحر، أن تنسى نفسها وهي تسبح مطاردة انعكاس أشعة الشمس على سطح مياهه كأنها تتجه إلى آخر الأفق قاصدةً اللامتناهي. لكنها الآن، يجب أن تواجه ما تحاول تجاهله وتناسيه. الوقت ضيّق وهناك أمور عليها ترتيبها بسرعة. تقفل دورة المياه كمن يودّع عزيزاً.

بينما كانت تجفّف جسدها، رأت نفسها في المرآة الطويلة المعلقة في الحمام، فأشاحت بنظرها بعيداً كمن رأى منظراً غير مستحب. تناولت بعض المنثول الذي حضّرته بنفسها ومسّدت صدرها به، وضعت زيت البرغاموت في المبخرة ليساعدها على الاسترخاء، ثم توجهت إلى المطبخ وهي بروب الحمام لتحضير كوب من شاي الجنجل الناجع في إزالة التوتر.

فتحت حاسوبها الآلي الذي وضعته أيضا مواجهاً للحديقة، وهي تأخذ جرعات من شاي الجنجل. وجدت أن موعد أول طائرة متوجهة إلى بيروت هو غداً عند الرابعة بعد الظهر. لن يكون بمقدورها أن تشتري البطاقة "أون لاين"، شروط الشركة تفرض حصول ذلك في مكاتبها في الأربع والعشرين ساعة السابقة للإقلاع. تذكرت أن المسؤولة هناك صديقة عائلة جدتها لأمها، التقتها مرة، في باريس،

مصادفة فعرضت خدماتها التي لم تحتجها لغاية الآن. تيريز، لا بد أنها ستسهل لها كل ما يلزم لتيسّر أمر سفرها في الغد.

تابعت تحضيرات السفر ودعت نفسها إلى التماسك وهي تتأرجح بين الذكريات. كانت عاجزة عن تخيّل ملامح أبيها، كأنها لم تنظر إليه منذ دهور. عبثاً حاولت، فلم تسعفها ذاكرتها إلا باسترجاع صورة غائمة كمن ينظر إلى شخص من وراء زجاج مغبش. حاولت أكثر كأنها تغوص داخل عينيها لتزيح هذه الغمامة التي تلبّدت فوق مخيلتها، لكنها لم تجد إلا التشوّش. عاد هذا الضيق الذي كان يداهمها دون سبب ظاهر إلى التربص بصدرها. كانت جلسات التأمل والتنفس عند مدربها كلود قد ساعدتها على التخفيف من وتيرة اجتياحه لها.

انتشلها رنين الهاتف من دوامة البحث وتذكرت الرحلة التي كانت وصديقها غي قد خطّطا لها منذ شهور لقضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة في "أربوا"، إحدى البلدات التابعة لسلسلة جبال "الجورا" في شرق فرنسا. يكون الطقس في تموز دافئاً إجمالاً حيث يحلو لهما ممارسة متعهما المشتركة في المشي وركوب الدراجة وتذوق النبيذ الأصفر الذي تتميز به تلك المنطقة، والتلذذ بنكهة الجبنة الطازجة التي تعبق رائحتها في المصانع التقليدية الصغيرة الملحقة ببيوت أصحاب المزارع. لكن ذلك ليس كافياً لتردّ عليه الآن، لم يحن وقت الكلام بعد. فمها مكموم وهي تشك في قدرتها على تحريك لسانها الذي سكنه الجفاف. تأخذ جرعة من الجنجل لترطيبه، ثم تنهض من أمام الحاسوب.

حقيبتها جاهزة. كانت قد وضّبتها لرحلتها إلى "أربوا". فيها ما ستحتاجه لبضعة أيام في بيروت، لكنها ستستغني عن حذاء المشي وعن "زوربا اليوناني"، الذي لا تملّ قراءته، وستستبدل بعض الملابس بالقطع القليلة السوداء الموجودة في خزانتها. الطقس حار في بيروت هذه الأيام وليس لديها الكثير من الثياب الصيفية السوداء. هي عادة ما ترتدي الأسود في فصل الشتاء. تواترت كلمة سوداء كارتجاج في رأسها. قالت لها أمّها خلال إحدى محادثاتهما الهاتفية بأن أحداً لم يفتح خزانتها منذ أن غادرت البيت. لم يتغير مقاسها منذ ذلك الحين... آه الصور... أجل، الصور جميعها هناك. جاءتها تلك الفكرة كقارب نجاة سينقل ذاكرتها إلى ملامح أبيها المصرّة على التواري. ربما لأنها لم تذهب إلى بيروت سوى مرة واحدة ولأيام معدودة منذ أن جاءت وهي في الثامنة عشرة من عمرها إلى باريس، قبل اثني عشر عاماً. كلما قررت السفر ثنتها إما الأحوال الأمنية غير المستقرة، وإما انشغالاتها ورحلات عطلها السنوية.

تذكرت، غداً تهاتف مسيو برنار صاحب الصيدلية السبعيني حيث تعمل، لا بد وأنه سيتفهم الأمر وسيوافق فوراً على تغيّبها عن العمل لأيام. يردّد دائماً أنها ساعده الأيمن، هي الوحيدة بين العاملين في الصيدلية التي تخصصت في علم الـ "homéopathie"، (علم المعالجة بالأعشاب)، والزبائن لا يعوّلون على سواها. بينهما علاقة ودّ وثيقة، منذ أن وقعت عينها في عينه في شارع بيغال أمام Le Sexodrome أثناء خروجها مع "غي" من عرض في "المولان روج" حيث كانا يزوران البيوت التي قطنها "بابلو بيكاسو" و"فان غوغ" ويتبادلان النكات

حول بنات الهوى والرجال المتلهفين لممارسة الطقوس الغريبة في الجنس. ستتصل بغي أيضا في الصباح الباكر تأمل أن تكون حينها أكثر تماسكاً وانسجاماً.

كارلوس وزوجته ميريم ناطورا المبنى سيتناوبان كالعادة خلال غيابها على ريّ حديقتها والاهتمام بها، فلطالما عبّرا عن فرحتهما وفخرهما حين توكل إليهما هذه المهمة. الزهور والنباتات العجيبة التي استطاعت تربيتها محط إعجابهما، فضلا عن أنها غالباً ما تصف لهما من حديقتها نبتةً ما لهذا العارض الصحي أو ذاك. ستترك خبراً مختصراً عن غيابها على جهاز تسجيل الرسائل الهاتفيه للأصحاب الذين سيتصلون خلال غيابها.

باغتها رنين جرس البيت هذه المرة فنبهها إلى أن أول خيوط الفجر قد بدأت تلوّن وجه الليل. هرولت تستطلع الوقت عبر هاتفها الجوال الذي تركته قرب محفظة يدها الملقاة على الأرض، فوجدته مطفأً. تناولت على عجل الروب دو شومبر ولفّت به جسدها بدل روب الحمام الذي نسيت خلعه، وأغلقت باب غرفة النوم وراءها كمن يستر عملاً ليس محموداً وهي تجري نحو باب المدخل الذي وجدت أنها نسيت إقفاله بالمزلاج على سائر عادتها. "دقيقة من فضلك"، قالت وهي ترقب عبر الناضور غي وقد جاء ليطمئن عليها عندما لم يلق أيّ صدى لمكالماته الهاتفية العديدة. كان واقفاً بهامته الطويلة، يميل يسرةً ويمنةً كمصارع ثيران متأهب على عكس طبيعته المسالمة الهادئة. لقد تجرأ إذاً على تخطي الخطوط الحمراء التي وضعتها له بوضوح، كأن لا يطرق بابها دون إعلامها سلفاً. "كنت

أجلت هذه المواجهة الآن لو أنني أجبت على مكالمته"، حدثت نفسها وهي تشقّ الباب، بينما راحت تنفض شعرها الأسود الكثيف المنسدل على ظهرها كمحاولة للتبرؤ من آثار التصدع العاطفي الذي حل بها. لم تعرف أية نظرة ترتدي.

ما إن همّ غي بقذفها بالجملة التي أعدّها ورتبها مراراً وتكراراً وهو في طريقه إليها، منهكاً من ليل أبيض قلق مرّ عليه بعد يوم طويل من العمل الشاق، حتى التصقت كلمته الأولى كعلكة مائعة في جوف فمه عندما وقع نظره عليها. رأت في عينيه المستفسرتين ما كانت قد أشاحت النظر عنه عندما لمحت نفسها في مرآة الحمام البارحة. استجمعت قواها وقالت بنبرة سريعة وقوية "بابا مات"، كمن يريد اختصار كلّ الكلام، ثم أضافت بوتيرة أسرع "سأغادر إلى بيروت اليوم".

أشارت إليه بالجلوس على المقعد المواجه للحديقة كدعوة صامتة وواضحة تسمح له بالنظر فقط إلى الخارج، بينما راحت تستكمل استعداداتها للسفر. أطاع وتناهت كلماته المرتبكة خلفها بصوته الأبحّ: "سأبقى معك حتى تغادري، سأقلك إلى المطار".

بدا غي غير متفاجئ بخبر الموت بقدر ما كان مصعوقاً بعينيها السوداوين الكبيرتين وقد استطاع خبر موت أبيها تغييب لمعانهما كزر كهرباء أُطفئ في غرفة مضاءة. كان غي يتعجب دائماً من تماسكها وقدرتها على كبح جماح عواطفها، من عدم تعلقها بشيء وبقائها دائماً على مسافة واضحة ومحددة من الأمور، ومن هدوئها في علاقتها بالمحيط، لكنها اليوم قلبت مقاييس الصورة التي كوّنها

على مدى سنتين من علاقتهما. فهو لم يرَ قبل الآن هذا الجسد الذي تسكن فيه – وكان دائماً منسجماً في وقعه– متوتراً قلقاً يكبت أنينه الضاجّ كأنه عالقٌ في شبكة صيد. انتبه أنه لم يشتم رائحة المنثول تعبق في بيتها من قبل. التفت لهنيهات إلى الخلف كأنه يتأكد من الفوضى السائدة في مدخل شقتها الذي عهده كسائر غرفها مرتباً. حقيبتها مرمية على الأرض، أغراض هنا وأوراق مبعثرة هناك. حتى أنها تركت شعرها منسدلاً، منكوشاً، هي التي تتمسك بربطه كمن يخاف عليه من الهرب.

لا يذكر أنها كانت تكترث كثيراً عند الحديث عن والديها أو أيّ من أفراد عائلتها. صحيح أنها كانت تتحدث عن أبيها مستذكرة خفة دمه ونكاته وشغفه بالبريدج والشعر وسماع العزف على الناي وحبه للمكتبة التي يملكها – في معرض الحديث عن الكتب التي قرأتها في الركن المخصص للأولاد الذي ألحقه بها– لكنها لم تعبّر يوماً عن شوقها أو حنينها إليه. "ربما ذلك بسبب طبيعتها الكتومة".

"هل ظهر له فجأة وجهٌ آخر منها، أو أنه كان كامناً وعميقاً؟ كأنني أمام شخص تربطني به علاقة زمالة، ليس إلّا، وألتقيه لأول مرة في محيطه العائلي أو في كاباريه، أو بعد نجاته من هزة أرضية مدمّرة". حوّل نظره إلى حديقتها متفحصاً، وهو لا يزال حيث أومأت إليه بالجلوس، كأنه يفتش عن لغز مخبأ بين النباتات التي تعرّف عليها لأول مرة في هذا المكان، وخصوصاً تلك الورود التي تستعمل بتلاتها في تحضير السلطات وعصارتها شراباً ضد تأكسد الخلايا ودهوناً للبشرة والشعر. "كأنّ حديقتها مختبر لتجارب تودّ من

خلالها استخراج إكسير الحياة"، فكر غي بما يشبه الاستنتاج.

جاءه حفيف حذائها على أرض شقتها الخشبية ليعلن اقترابها منه قاطعاً ظنونه وتخيلاته. بادرته بابتسامة، "شكراً غي لانتظارك! حان وقت الذهاب إلى مكتب الميدل إيست". فهم أنّ أفضل طريقة لمساندتها هي احترام الصمت الذي تريده كما يفعل عندما يجلس طويلاً متأملاً مجسّم قبة كنيسة ينوي ترميمها، محاولاً الإصغاء لها. حمل حقيبة سفرها الصغيرة التي وضعتها بجانب المدخل وتذكّر الطريقة التي توضبها بها. لطالما ضحك بسبب صرّها كل قطعة من ثيابها على حدة لاقتناعها بأنها الوسيلة الفضلى للاستفادة القصوى من سعتها.

لم ينتظرها طويلاً عند مدخل البناية عندما رآها برفقة الناطور كارلوس وهو يومئ لها مودعاً بيد بينما يحمل في اليد الثانية التعليمات التي كتبتها له ولزوجته ليكونا على بيّنة من موعد ريّ هذه النبتة أو تلك.

في ذلك الصباح الذي اختاره تموز لينثر بعض الرذاذ اللطيف على شوارع باريس غير المكتظة نسبيّاً صباح يوم سبت، نشأ بين نورهان وغي شعور وثيق غير معلن ببلاغة الصمت ومهارته في نسج عواطفهما العميقة.

"سأنتظرك في "Le Figaro"، قال لها هامساً عندما وصلا قرب مكتب الميدل إيست، كأنه لا يريد مسّ السكون الذي ولّده الصمت في السيارة. استطرد وهو يشير بيده إلى المقهى المجاور، "أحتاج إلى بعض القهوة". أومأت له بالإيجاب وأفرجت عن ابتسامة خافتة.

ابتعد داسّاً يديه اللتين تحملان بقايا الألوان المستعملة في عمله في جيبيه وهو يتجه نحو المقهى، بينما سارت نورهان بتباطؤ وقطرات المطر الخفيف تروي وجهها.

لم يطل انتظار نورهان لتيريز، وافتها بقامتها القصيرة يتقدّمها صدرها وتتبعها مؤخرتها العارمة. فتحت ذراعيها متطاولة على رؤوس أصابعها وضمتها بحرارة ولدقائق. "من شوي قريت الخبر المفجع ع موقع النهار". ما إن خرجت أول كلمة من فم تيريز الذي تحتشد فيه أسنانها كمدخل مدينة كبيرة محشورة بالسيارات عصر يوم أحد، حتى تذكرت نورهان ذلك الصوت الذي كان يلعلع في بيت جدتها لأمها نهلة الجبلي. هناك، كانت تنعقد جلسات البريدج الصيفية بين والدها وجدتها وخالها نديم وتيريز، بينما كانت أمها تقضي معظم أوقاتها نائمة. "يا خسارته منصور... يا خسارته... بكير كتير"، قالت وهي تأخذ بيد نورهان متوجهة إلى مكتبها، "شو كان يدلّلك، ما كان حدا يتجرأ يقاطعه عن البريدج إلا إنت، كان يوقف ويقول هيدي نوري... هيدي ملكتي". كان دوي صوت تيريز القادر على كسر حاسة السمع بمثابة موجة برق ورعد وصلت للتو من لبنان عبر مكتب الميدل إيست في الأوبرا، محمّلةً بألف صورة وصورة بقيت صورة أبيها غائبة عنها.

"وصّلي شوقي وتعازيّ للماما، الله يساعدها دلال، بيكفيها..."، وكتمت ما كانت تريد إضافته لتتابع بث سلاماتها "ولتاتا نزهة... يا مسكينة... يا مسكينة بآخر هالعمر، وتاتا نهلة... بي بي... شو رح تفقدله، ما كانت جلسات اللعب تحلى من دونه، على كلّ حركة كان

يخبر نكتة أو مثل أو بيت شعر". خفّف صوت تيريز العالي بعضاً من تأثرها وهي تعطيها بطاقة السفر التي جعلتها في الدرجة الأولى كبادرة منها لم تكلّفها شيئاً. على أيّ حال، لم يكن هناك مقعد شاغر في صفوف الدرجة الاقتصادية. إنه تموز الذي يشهد عودة كثيفة للّبنانيين المقيمين في فرنسا وخصوصاً أنّ موجة السيارات المفخخة والاستشهاديين قد توقفت إلى حين بحسب "المصادر الموثوقة".

عندما تسلمت نورهان بطاقة السفر، تنفست بعمق لشعورها بالتحرّر من تيريز. شكرتها بشدة وهي تبتسم لها بشفتين مطبقتين لتؤكد أنها ستبلّغ تعازيها، بينما كانت تهزّ رأسها فيتمايل معه ذيل شعرها المضفور. انبعثت في ذاكرتها رائحةٌ نقلت إليها صورة الغرفة في بيت "تاتا نهله" حيث كانت تنعقد جلسات البريدج، ووصلتها رائحة الويسكي وتبغ الغليون الذي كان أبوها يدخنه فقط في تلك المناسبة، مختلطة برائحة الضحكات المرتجّة التي أتتها متلاحقة ومترافقة مع شعور مسمّم تجهل مصدره. غالباً ما تشتمّ نورهان روائح الذكريات، تنبعث فيها روائح خاصة ومجددة كأنّ ما خزنته ذاكرتها يستعيد الروائح قبل الوقائع، مترافقة مع مشاعر تختفي عنها مسبّباتها فتبقى مبهمة.

رافقتها تيريز إلى الباب حيث ينتظرها غي، ثم حركت جفنيها يمنة ويسرة وهمست في أذنها وهي تودعها كما لاقتها بالأحضان: " بون شوا يا ملعونة، طول عمرك بتعرفي شو بدك، كأنك ستك نهلة. ما حدن طلع شبهها متلك. بتهلي متلها لمن كانت بصباها. كأنها هيّ خلفتك". كتمت نورهان رغبة في أن تصرخ في وجهها "خلص"،

هي التي لطالما امتعضت من وجه الشبه الذي يراه الناس بينها وبين والدة أمها، رغم صيتها الذائع كامرأة جميلة ومتألقة وقوية ومثيرة للإعجاب.

في السيارة، انسابت معزوفة أرفو بارت "To Deum" كرائحة ليل خريفي ماطر تضيئه أشعة قمر مكتمل قادرة على بعث البهجة حتى في القلوب المظلمة، كما وصفتها نورهان ذات مرة، فلم يخف عليها سبب اختياره هذا. "يجيد سماع صمتي أفضل من سماع كلامي"، حدثت نفسها وهي تلقي برأسها على مقعد السيارة، وأدركت في تلك اللحظة كم هي منهكة ومحتاجة إلى النوم. إذا فعلت، قد لا تستفيق. راودتها هذه الفكرة لدقائق، ثم شعرت بفراغٍ مضيء يمسّد روحها، فاستكانت إليه.

ما إن بدأ هذا السكون بالتحول إلى مهد، حتى عدّلت من جلستها مغادرة الكابوس الذي اقتحم غفوتها، أحد الكابوسين النرجسيين اللذين لا يكلّان من مراودتها منذ سنين طويلة مقتحمين سريرها. ترى نفسها طفلة برفقة أبيها، تقود دراجتها بيدٍ وتجرّ بالأخرى دراجة ثانية تركبها دمية مصنوعة من لحم ما تلبث أن تتدهور على مرأى من ناظريها في واد يذكّرها بالوادي الذي يشرف عليه بيت "تاتا نهلة". تستيقظ في كل مرة منه وقلبها يكاد يشق صدرها من سرعة الخفقان. لم يخفف هذا الكابوس من حبها للتنقل على الدراجة الذي يمدّها بإحساس بالخفة والحرية. شعرها الذي لا تطلق سراحه إلّا في هذه الفسحة، يتطاير خلفها كأنه يطير نيابة عنها. مراراً رجاها غي أن تسدله وهما في السرير حين تكون ثانية ركبتيها، تلفّ حوضه

بساقيها، لكن رجاءه بقي رجاء.

"وقت أكبر بدي صير شعرك نورا"، تردّدت في ذاكرتها هذه الجملة، التي كان أخوها نوّار يصرخ بها وهو يستعجل دراجته خلف درجاتها، في محاولة عابثة للّحاق بها. كانت أحياناً تصطنع الإبطاء لتوهمه بأنه سبقها، كأنّ تعلقها به وحبها له علماها، ولم تكن بعد قد بلغت الثماني سنوات، أن تكون أمّا تحرص على تنمية ثقة ابنها بنفسه. تذكرت أيضا أنها كرهت تاتا نهلة عندما أجبرتها على قصّ شعرها.

لم تكن وسامة غي ما جذبها إليه في بادئ الأمر، بل استظرفت الطريقة التي قاربها بها. كانت في يوم عطلة تتنزه كما يحلو لها مراراً على دراجتها في منتزه Le Bois de Vincennes عندما شعرت بالتعب. ألقت دراجتها وتمدّدت على العشب ووجهها نحو السماء. فاجأها أحدهم بأن رفع دراجتها وركبها كأنه يهمّ بسرقتها، وعندما قفزت على رجليها لتلحق به، توقف بعد أمتار قليلة وبادرها ضاحكاً وهو يشير إلى دراجة أخرى "أتقبلين المبادلة؟". استرخت عندما عرفت أنه ليس سارق دراجات وإنما سارق قلوب ممتهن كما يظن. "لا تستهويني الدراجات المزينة بأعلام"، أجابته وهي تخفي ابتسامتها، فردّ عليها بسرعة: "أنا تستهويني الدراجات التي تركبها فاتنات".

وحدها الفسحات الأمينة الهادئة التي كانت تحيط ببيت نهلة الجبلي، جعلت اللعب على الدراجة ممكناً لها ولأخيها نوّار عندما كانا طفلين. كان اقتراب الصيف يعني لهما بالدرجة الأولى الدراجة. بدأت تمسك بالدراجة وهو يحرك العجلات، تتركه للحظات يجرّب

وحده وعندما يقع، تركض إليه وتركع أمامه متفحّصة رجليه يغطيهما زغب أشقر خفيف، فتنفض الغبار عنهما ناظرة إليه بحنان، "ما صار شي... ما صار شي... نوّاري بطل"، فيرد عليها: "نورا بطلة... نورا". ثم يصرخان معاً "من جديد... من جديد". عندما نجحت للمرة الأولى في تعليمه القيادة على دولابين بدلاً من ثلاثة، صفّق نوّار لها وصفّقت له. راحا يتسابقان ببهجة حملت أصواتهما إلى شرفة المنزل الفسيح حيث كانت دلال تطلّ من حين لآخر للاطمئنان عليهما.

مضت سنتان وهي وغي على علاقة جيدة رغم تذمّره الظاهر من أنها تنصب دائماً حواجز ما بينهما تكبح شغفه بها وتسيء إلى السير قدماً في تطوير علاقتهما. "كأنك تقفين على ميزان مشاعر قبل كل مرة نلتقي فيها"، كما كان يعبّر لها. لم يكن لديها يوماً أجوبة أو تعليقات على هذا الكلام. لقد نجحت دوماً، ربما دون قصد أو جهد، بتحويل وجهة الكلام نحو موضوع شيّق تثيره أو مشروع قريب تخططه معه لقضاء عطلة ممتعة.

غي، أستاذ تاريخ الفن والعمارة في جامعة "سوربون بانتيون". الفنان الشغوف بترميم قبب الكنائس والبيوت القديمة، تمرّس على امتهان الصبر من خلال عمله. كذلك، أدرك في أعماق نفسه أن شخصية نورهان واستقلاليتها لن يكونا عائقاً بينه وبين الوقت الذي يحب أن يكرّسه لعمله. لطالما تذمّرت النساء في علاقاته السابقة واحتججن لشعورهنّ بأنه يهملهن لصالح تفانيه المبالغ فيه تجاه عمله. نورهان لم تفعل ذلك بتاتاً. لا تطلب منه اللقاء حين يكون

مشغولاً. تصغي بشوق ومتعة ظاهرين لأحاديثه الطويلة عن عمله، حتى التقنية منها، ومعالجته للألوان والمواد التي يستخدمها في ترميم الكنائس، وكذلك لتعبيره عن شعوره عندما يكون معلقاً بين قبة الكنيسة وصحنها كنسرٍ يحلّق في سماءٍ ملبدةٍ بغيوم تبعثرت وبهتت ألوانها وهو بصدد إعادة تشكيلها ناظراً إلى هذا الصحن كأنه الأرض، وهو من عليائه يوائمه مع سمائها.

غسل رذاذ المطر الذي كان ما زال يتساقط وجه السماء، فظهرت الشمس جلية تتراقص بدفء على وجنتي نورهان وهي تتأرجح بين الإنهاك والتأهب. كانا يقتربان من المطار كما دلّت إشارات السير عندما شقّت عينيها. التفتت بعفوية إلى غي الذي كان غارقاً في أفكاره، فشعرت أنها تحيطه بحزنها. فتحت شفتيها لتقول له شيئاً فخرج الكلام هواءً فارغاً. "أنا على ما يرام"، قال لها مطمئناً وكأنه قرأ أفكارها.

أصّر غي على ركن السيارة في مرآب المطار ومرافقتها إلى أبعد نقطة يمكن لغير المسافرين أن يصلوا إليها. "أمواتنا لا يموتون إلا حين ننساهم"، همس وهو ينحني ليضمّها بملء ذراعيه إلى صدره. نزل كلامه الذي أراده مواساةً كلكمة على معدتها، فشعرت برغبة في التقيؤ. تمالكت نفسها وشكرته بعينيها قبل أن تبادره وهي تربّت على كتفه، "أشكرك على كل دقيقة قضيتها معي، كنت رائعاً اليوم". ردّ غي: "أشعر معك وأقدّر ما تمرين به، سأتصل بك هذه الليلة للاطمئنان ولن أطيل عليك". هزّت رأسها موافقة وأفرجت عن ابتسامة حنونة عكست بعض حياةٍ غابت عن وجهها القمحي.

بقي غي واقفاً يتبعها بنظراته، متأمّلاً جسدها النحيف الملتف بشالها الأسود الطويل، وهي تبتعد شيئاً فشيئاً في صفوف المسافرين، حتى اختفت دون أن تنظر إلى الوراء. شعر برغبة كبيرة (فيها) وفي البكاء في آن واحد. تنبّه إلى أنها لم تذرف دمعة واحدة منذ أن رآها صباح هذا اليوم. في الواقع، لم يرها يوماً تبكي. فقط رأى عينيها تغلفهما غلالة من الدموع، دون أن تتفلت منهما دمعة واحدة، ما يزيد لمعانهما كبحيرة في سماء ليل كثير النجوم. كانت تدمع عندما ترى منظراً جميلاً جداً أو طفلا يبكي. بكى. "تبدو كأمّ فقدت ولدها أكثر منها امرأة ناضجة فقدت أباها"، حدّث غي نفسه وهو يمسح دموعه متجهاً إلى سيارته، مطرقاً يفكّر بحالها.

كانت تتوغل في حرم المطار شاعرة ببعض الخفة وقد أصبحت وحيدة بالرغم من تقديرها لغي ولنعمة حسه الرهيف الذي رقّ اليوم أكثر من أيّ وقت مضى. تماماً على عكس الزوبعة تيريز بالرغم من بطاقة الدرجة الأولى وما أظهرته من اهتمام وعاطفة. "بس أف... متل قارئات العزاء هالمرا بتنعق وبتنبش القبور"، قالت لنفسها. "هل سيحضرون قارئة أو قارئاً في عزائه؟"، ورد السؤال إلى ذهنها. كان يستعيذ من القارئين، حين كانت أصواتهم تضجّ في سماء المدينة وخصوصاً خلال أيام عاشوراء، سمعته يقول مراراً: "إذا متّ لاااااا سمح الله (بترنيمة مطّولة)، بوصيكم لا تفوتوا هيدول المولولات والمولولين والنقاقات والنقاقين ع عزاي". سيناسب أمها ألا يفعلوا، فهي لم تنشأ على هذه العادات في مجتمعها المسيحي الذي لم تغادره إلا حين تزوّجت أباها. كان

يصيبها ضيقٌ شديد من أصواتهم دفعها أحيانا للهرب إلى بيت أهلها الكائن في حيّ هادئ. لكنّ الأمر مختلف بالنسبة (إلى جدّتها) نزهة المقيمة في الجنوب والتي لا تقطع فرض صلاة أو صوم مع أنها ناهزت التسعين بعافية (لافتة). ستعتبر أن الأخذ بوصيته هذه سيمعن في إيصاد أبواب الجنة أمامه. "ضارب بالطبلة من أول شبابه"، على حد تعبيرها، " لو ما خفت ما يتزوج بالمرة، ما كنت قبلت يتزوج المسيحية"، سمعتها نورهان تقول لعمتها زهرة في معرض حديث لا تذكر منه إلا هذه الجملة.

نبهها الإعلان عن موعد إقلاع الطائرات أنه لم يتبقّ أمامها إلا ساعة. توجهت نحو الحمام فطالعها محلّ التبغ وكمالياته في السوق الحرّة (التابعة) لمطار "شارل ديغول". تذكرت أنها انهمكت (في شراء) الهدايا من السوق الحرة عندما ذهبت إلى بيروت منذ ست سنوات، إذ لم يتسنّ لها شراؤها من محال المدينة قبل موعد سفرها، باستثناء الغليون الذي اشترته، (سلفاً)، لأبيها من محل Les Pipes de Cogolin، وكان قد قصده عندما جاء وأمها لزيارتها في باريس. كان أكثر ما جذبه إليه، هو المغرم بالكلمات، شعاره "من الغابة إلى المدخّن". أمضى أبوها وقتاً مع السيد أوليفييرو وزوجته، مديري المحل، يتحدثان بشغف عن نوعية غلايين "لو كورييي" الذي يعود تقليد اختيار خشبه وطريقة تحضيره إلى مائتي سنة. لكنه لم ينس أن يجاهر أمامهما بخفة دمه المعهودة، بإخلاصه لـ"Savinelli Clarks"، الغليون الذي صُمّم تكريماً لممثل هوليوود الشهير كلارك غابل. "إنك تشبهه أيضاً"، قالت السيدة أوليفييرو

وهي تنظر إليه من فوق نظارتيها، وخصوصاً بسمتك الساخرة".
"لا شك، سيدتي، أنك تعنين أن كلارك يشبهني وليس العكس"، ردّ أبوها بجدية تامة وهو ينظر في عينيها، قبل أن يطلق عصافير ضحكته.

وقع نظر نورهان على محل الملابس واللعب المخصص للأطفال. اشتمت رائحة حامضة وشعرت بقبضة تمسك على عضو الحب الذي تحسّ به تماماً فوق معدتها. طفرت دمعة من طرف عينها، دمعة أولى استطاعت أخيراً أن تتفلت مذ وصل إليها خبر موت أبيها. تراءى لها أخوها نوّار هزيلا، ضعيفاً، متألماً، غائر العينين، حين خطفه المرض من طفولته ومنها، وخطف معه الضحك واللعب وكل الفرح. المرض الذي سرّب اليهما قبل الأوان بكثير، ما هو للكبار وما لا يشبه شقاوة الأطفال في نهارهم ولا هناء نومهم في الليل، المرض الذي طرد الجنيات اللطيفات وأبقى على الساحرات الشريرات وسرق حتى رائحة الكولونيا لتغلب رائحته على كل ما عداها.

تابعت نورهان سيرها إلى الحمّام شاردة الذهن لتجد أمامها أماً تبدّل لطفلها حفاضه. اقتحمت إحدى الكابينات الفارغة وقد عاودتها الرغبة في التقيؤ. لم يخرج من معدتها سوى القليل من الماء الذي أصبح بطعم العلقم من جراء إفرازات معدتها الفارغة. لم تأكل منذ ليلة البارحة!

غسلت وجهها وفمها لتتخلص من طعم التقيؤ المرّ الذي شعرت به ملتصقاً كذكرى لا تُمحى. أدنت وجهها من المرآة وزفرت أنفاسها، فتغبّشت صورتها المنعكسة. مسحت البخار كأنها تنظف صورتها،

ثم حدّقت طويلاً في لعبة تثبيت النظر في العيون كأنها تتحداها. تمتمت مثلاً سمعت أباها يردده: "مرايته بتخبر عن باطنه"، فأدركت لأول مرة كم تجهل نفسها.

"يرجى من المسافرين على متن طيران الشرق الأوسط التوجه حالاً إلى الطائرة". شدّت رباط شعرها وتوجّهت نحو باب الطائرة، مستقيمةً ثابتةً كأنها تتابع تحدّيها لصورتها في المرآة.

شربت نورهان كوب الماء الذي استقبلتها به المضيفة دفعةً واحدة، وطلبت كوباً آخر.

٢

حسمت "تاتا نهلة" الأمر. تقبُّل التعازي يكون في بيروت وفي الجنوب. "أكيد بيت منصور ما بيتسكّر، محبّينه ببيروت كتار وما رح نتعّبهم، الطريق للجنوب طويلة. ننتظر نورهان وننقله لبيت المسكينة أمّه وبعد الدفن بجبانة العائلة، منرجع ع بيروت ومنفتح بيته هون ليحين أسبوعه". كانت نهلة تتكلم كأنّ منصور دسّ لها وصيّته قبل رحيله، وهي تحرّك يديها بشكل شبه دائري يظهر بوضوح فرادة أصابعها التي يتساوى فيها حجم السبابة مع الأوسط. بطبيعة الأمر لن يُستدعى إلى بيته قارئو العزاء الذين كان يستعيذ منهم. "ما بدنا عظامه ترتجف... يا ضعانتك يا منصور... مش مصدقة... مش مصدقة... مين كان قايل منصور بموت؟".

نظرت دلال إلى أمها مستغربة إملاءاتها، كأنها نسيت تشبّث أمّ منصور بالأصول الدينية، وتقاليد عائلة آل سلمان الثابتة. لكنها لم تتلفظ بكلمة. قلما اعترضت أو علقت على كلام أمها أو غيرها. إنها اختارت أن تكون متفرجاً سلبياً.

تعود علاقة منصور بنهلة إلى ما قبل زواجه من ابنتها بزمن طويل.

علاقة عمل بها وبزوجها تطوّرت إلى صداقة. بعد وفاة زوجها، تسلمت نهلة يساعدها ابنها نديم، إدارة أعماله في نشر الكتب والتجارة بها. لفت ازدهار أعمالهم، بعد تسلّمها زمام الأمور، الجميع وجعلها محط إعجاب واحترام. لم تكن نهلة يوما "ست بيت". في الحقيقة كانت تنظر بدونية إلى النساء اللواتي يلازمن بيتوهنّ ولا يولين أهمية إلا "للطبخ والنفخ وطق الحنك". قبل تسلّمها إدارة أعمال زوجها، كان انهماكها منصبّاً على صالون الشاي الذي أسسته وألحقت به مكتبةً تتيح القراءة لروّاده بينما يحتسون الشاي على أنواعه مع أصناف شهيّة مميزة من الكعك والحلويات. مع الوقت، أصبح صالونها ملتقى ثقافياً لأمسيات أدبية تُنظّم فيه دورياً معارض فنية. حاولت كثيرات من النساء تقليدها، لكن الأمر انتهى بهنّ إلى الاستسلام.

هناك "ريموت كونترول" خفيّ تمسك به تاتا نهلة وقد برمجته دون عناء، تنساب عبره رغباتها كما الزيت على جسد عار مستلق فوق رمل البحر في نهار حار. تتقن تطويع الناس والأمور بخفّة ساحر. "كن فيكون"، إنها نعمة "الكاريزما" التي لا تحتاج إلى أن تأمر أو تهدّد لكي تجعل الآخرين يمشون على الدرب التي تريد، ويعملون على تحقيق ما ترسمه من أهداف.

خارج إطار علاقات العمل، جمعت في البدء طاولة البريدج بين منصور ونهلة وزوجها. كان في الثالثة والعشرين. شاباً نديّاً لكن محنكاً، شغوفاً بعمله وبالكتب، إلى جانب شغفه بأمور أخرى. عشقه للقراءة واللغة كان دليله لاختيار هذه المهنة وليس العكس. لم يفكّر

في الأمر مرتين عندما قرّر ترك البستان الذي ورثه وأختيه، زهرة ونادية، عن أبيه.

بالرغم من تعلقه بأمه، نفر منصور من بيئته العائلية والاجتماعية التي كان يحملها على كتفيه كتركة مزعجة ومعيقة. كان طائراً يغرّد خارج سربه مذ كان طفلاً. ولطالما أثار قلق والدته عليه حين بدأ، وكان لم يزل في مطلع مراهقته بعد، يصرُّ بعضاً من أغراضه ويعلن أنه سيغادر البيت الذي يقبض على أنفاسه لأيام. فعلت كلّ أمر ظنته قد يرضيه، لكنها عبثاً حاولت. سخر مبكراً من التعاليم الدينية والأخلاقية التي كانت أمّه تحاول "تسميده" بها. اعتبر المدرسة سجناً وكان يدعوها "مَتيَسَة" قاتلة للمواهب وقفصاً تدجّن فيه الحريات. كان يردّد بأنه لو كان رئيساً للبلاد لأقفل المدارس وأطلق الأولاد في حقول كتبٍ وألعابٍ لا يطأها هؤلاء "المخرّبون" الذين يدعون أنفسهم مربّين. هازئاً كان يردّد قول الشاعر:

بليغٌ كما قيلَ والغينُ دالٌ خبيرٌ نعم أنت والراءُ ثاءُ
جميلٌ لا شكَّ والجيمُ عينٌ كريمٌ بفعلك والميمُ هاءُ
كتبت سطورك واللام قاف بفهم سليم بغير انتهاء...

لكنه كان دوماً من الناجحين بالرغم من أنه كان يبذل جهداً قليلاً لإتمام واجباته المدرسية، مكرّساً وقته الأكبر لقراءة الشعر والتاريخ والأساطير التي اهتدى بها إلى فرويد فأقبل على قراءته بنهم.

كان يبدو التأثر والحزن على تاتا نهلة لرحيل منصور، أكثر مما كان يظهر على ابنتها دلال. اتصلت دلال بأمها تخبرها بالعارض الذي أصاب زوجها صباحاً، وهي في سيارتها التي يقودها واكيم،

أمين مكتبة منصور وساعده الأيمن، وراء سيارة الإسعاف التي كانت تنقل منصور إلى مستشفى الجامعة الأميركية، على بعد أمتار قليلة من بيتهم في عين المريسة. كان الطبيب قد أعلن وفاته قبل أن تصل نهلة على عجل إلى المستشفى.

"يا عدرا يا عدرا، شو صار له؟ مبارح كان متل الفجر عم بهلّ بالعرس"! كانت نهلة ترثيه بصوت باكٍ خافتٍ ينسجم مع سيدة لائقة مثلها. حضروا جميعهم في الأمس عرس زاهر ابن مالك صديق منصور الحميم ورفيق طفولة نوّار ونورهان. "حكى ومزح مع الكل، وضحّك وبكّى الكلّ لمن قال كلمة، وخصوصي لمن ذكّر بنوّار"، قالت تاتا نهلة منتحبة.

انفجرت دلال باكيةً ما إن سمعت أمها تتلفّظ باسم نوّار، طفلها ابن الست سنوات الذي ذوى ورحل وهو لم يتفتّح بعد. بعد رحيله، أصيبت بكآبة شديدة أعادتها إلى انطوائها وجعلتها تمتنع عن الحياة فكانت تقضي معظم وقتها نائمة. لم تُقبل دلال يوماً على الحياة بشغف، تُحرّكها ضرورات الحياة مثلما يفعل الهواء بقطعة الملابس على حبل غسيل. طويلة، هزيلة، تشي عيناها الواسعتان، اللتين أورثتهما لابنتها، عن وجود طفلٍ فيها مختبئ بسكون لم يجد مثيله في مكان آخر.

عند ولادة نوّار، استيقظ كلّ ما فيها كأنها أنجبته ليس فقط من رحمها بل من عينيها أيضاً، فبعثت الولادة روحين فيه وفيها. شعرت منذ تشكله الأول في رحمها بخلايا جديدة تتوالد، راقبتها وحضنتها كأنها تخبّئ سرّاً تخاف عليه أن ينكشف: عالمٌ حميم أنيس يبني نفسه

وتعيش تطوّره يوماً بعد يوم، وتتحراه بدقة شيرلوك هولمز وهو يعاين مسرح جريمة أو شخصاً مشتبها به. سطعت كل حواسها وتوهجت. أصغت إلى حركة الدماء في أسفل رحمها كخيطٍ رفيع يصل بين جسرين، وكادت ترى هرمونات لطيفة تفكّك تشنّج معدتها المزمن. أصبحت حركتها ليلاً ونهاراً في وئام تام مع احتياجات جسدها. النوم الذي كان ملاذها أصبح غريماً كأنها لم ترد أن تفوّت عليها لحظةً احتفالية واحدة بهذا الكرنفال الفريد الذي يقيمه جسدها وتأنس به نفسها. حين كان النّعاس يداهمها، كانت تستسلم له وهي ترنم أغنية لجنينها أو تستمع لموسيقى كلاسيكية. حمل لها كلّ ليل حلماً جديداً آتياً من غابة، كأن ترى نفسها أمام شجرة ضخمة مبتورة وتسمع صوتاً يخبرها بأنها النصف المكمّل لها. كأنّ حَملها هذا هو الأول، كما لو أنها ولدت نورهان قبل سنتين دون أن تحبل بها أو تنتبه لنموّها في رحمها.

منصور هو فارس الأحلام الذي تتمنى الحصول عليه كلّ الفتيات، كما كانت تردد نهلة أمام ابنتها. تزوجت دلال فارس الأحلام هذا انصياعاً لرغبات أمها التي لم تفكر مرة في مخالفتها. ليلة زفافهما، كانت متشنجة جداً إذ شعرت بالخجل في التعري أمام صديق أهلها وهي لا تذكر أنها تعرّت أمام نفسها. لكنها لم تمانع عندما اقترب منها وقام بما قام به، استسلمت له مترقبة. غير أنّ النافذة التي بين فخذيها أطبقت كمن تلقت أمراً، "اغلق يا سمسم" أمام اللص الذي جاء يغزوها، إذ تفاجأت بإصرار منصور على ولوجها من قفاها وهي التي لم تعرف إلا القليل عن "أسرار المخادع الزوجية". أصيبت

بنزفٍ علمت خلال معالجتها له التي استغرقت بضعة شهور، وصاحبه تقيؤ مستمر ودوار ووجع رأس منعها من النوم، أنها كانت حاملاً. انشغلت دلال خلال حملها بنورهان، بالعوارض الجانبية التي كانت تشعر بها، ونسيت الجنين كأن به أصبح عارضاً، والحالة المرضية كانت الأساس.

منذ أن تزوجا، وافقت دلال على اقتراح منصور بأن يكون لكل واحد منهما غرفته. قدّرت هذا الخيار عندما أصبحت غرفتها المملكة التي تعيش فيها حميمية حَملها بنوّار وتحوّلات جسدها. بدأت، كما لم تفعل يوماً من قبل، تتعرى أمام المرآة لتتأمل بسعادة وفخر بطنها يتكوّر شيئاً فشيئاً، والخط الذي يصل بين مثلث عانتها وصرّتها صعوداً نحو تخوم صدرها، وشفتيها تنتفخان كبرعم يتحول إلى زهرة، وأنفها يتضخم وعينيها توغلان وتزدادان بريقاً. "أنا هي هذه المرأة وهذه المرأة هي أنا"، كانت تردد وهي تستدير شمالاً ويميناً لترى نفسها من كل الزوايا. بديعةً بدت لها الدنيا، سيدةً عليها شعرت بنفسها. كان يحدث في بعض الأحيان أن تغضب وتنفجر وهي تختال بجسمها أمام المرآة مفتونةً باكتماله، باكيةً تجاهلها له كل هذه السنين، حاقدةً على نفسها وعلى زوجها لأنها لم تعش إلا ألماً وانزعاجاً حين حملت بابنتها البكر، لتعود وتدلك بطنها المستدير حباً وسماحاً ولتفرح ملء عينيها وقلبها ورحمها. كانت من خلال حملها هذا تعوّض ليس فقط لنفسها ما فاتها في حملها الأول، إنما أيضا على ما لم تنله نورهان من عنايةٍ خلال تكوّنها في رحمها، ومن ثم بعد إنجابها

إذ توكّل منصور تربيتها إلى حدّ التملك.

كانت مفاجأة منصور كبيرة عندما أعلنت أنها لا تريد الذهاب إلى المستشفى للولادة، "ما رح أحتاج حتى إلى داية، أنا هللي حملت وأنا بوَلد" . همهمم منصور في ذهنه وخطر الغليون على باله وهو يستمع إليها معجباً ضمناً بهذه الفكرة الثائرة، رغم الدهشة التي أظهرها في وجه زوجته الجديد. لم يكن قد كوّن ثقةً كافية بقدراتها المستجدة ليرضى بمثل هذا الخيار، مع أنه كان يراقب تحولاتها كمن يرصد عبر منظار أطوار القمر في دورة تحوّله من هلال إلى بدر. كان أول ما لفت انتباهه أنها غيرت جمْيع عاداتها كما لو أنّ الخريف تحوّل بين ليلة وضحاها إلى ربيع. "كأني عم بقرا شي أسطورة"، حدّث منصور نفسه، "بسحر ساحر ولّدت حالها إنسان جديد قبل ما تولد الجنين اللي حاملته... عجيب!".

قبل أن تحمل للمرة الثانية، استفاق جسد دلال فيها. أخذت تتحسس نداءً شهوانيّاً يغامر تحت جلدها فتبعته مداعبة مكامنه، بمتعة الاستكشاف ونشوة الرضى، حتى يسري خدر كهربائي لذيذ في جسمها يصل متموجاً إلى جلدة رأسها وأطراف أصابعها، تستسلم له كورقة شجر فوق نهر جارف. "عم تزورني الحياة؟" هل أحيا لأول مرة؟، كان أول ما تبادر إلى ذهن دلال عندما تبدّد الخدر وتأكدت أن ما عاشته لم يكن حلماً.

عندما حملت بنوّار غازلتها فكرة أنها أخصبته من نفسها وتبنّتها وهي تضحك في سرّها.

منذ أن تعرف إليها في بيت أهلها، شعر منصور أنه أمام إنسان

يشبه قصة صغيرة نظيفة الطباعة، واضحة المعنى، رتيبة الوقع، سهلة لا تشويق ولا إثارة فيها، تساعد قراءتها على النوم باطمئنان. كان هذا جلّ ما أقنعه بالزواج منها. "ما بدي اتزوج لوجع راسي"، كان يردّد أمام أمّه كلما فاتحته بموضوع الزواج. كان منصور يبادل وجود زوجته الخفيف بالود والاحترام ولم يكن ينزعج من أنها "تعيش قليلا"، ولا من عزلتها أو كآبتها. لكنه الآن أمام أحجية، لذا فربما كان عليه الاستعانة بنهلة لحلّها.

كان منصور ونهلة صنْوان. هي المرأة "الألفا" وهو الرجل "الألفا". وجد بها توأمه الأنثى كما وجدت به توأمها الذكر وتمتّنت علاقتهما واشتد شغفهما الوجودي ببعضهما مع مرور الأيام اذ كمّل أحدهما الآخر في العمل والجلسات الاجتماعية، كما في متعة التخاطب واللهو والدعابة. قبل وفاته، كان زوج نهلة مغتبطاً ضمناً بدخول شاب مثل منصور إلى عالمهم فقد أراحه ذلك من تحمل كثافة وجودها بمفرده وخفف من شعوره بالذنب والضعف والحقد أحياناً، حيال عدم قدرته على مجاراتها.

أمام تصميم دلال والثقة التي أظهرتها إزاء خيارها، توصّل الثلاثي إلى مساومة تقضي بإحضار ولّادة ماهرة لمراقبة المخاض والوضع، مع توافق غير معلن بين منصور ونهلة بمنح هذا المخلوق الجديد حقّ تقرير مسار مسألة تخصّه بالدرجة الأولى على أهميتها، أضف إلى ذلك عدم وجود ما يستدعي القلق. قبل ثلاث سنوات، وُلدت نورهان دون أي تعقيدات ولم يتدخل الطبيب إلا شكلياً، وصحة دلال اليوم ووضعها النفسي يبدوان بشكل جليّ أفضل

بأطوارٍ مما كانت عليه عندئذ.

قرأت دلال الكثير عن كل ما يتعلق بسلامة الحمل ومراحله، صحة الجنين وكيفية الولادة دون وجع. أرادت لورشة البناء داخل جسدها أن تصل إلى حدّ الكمال، كمن يبني بيت الأحلام الذي سيسكنه مع حبيب العمر "حجراً فوق حجر"، بكل الحب والتفاني والبهجة. كانت تعوّض ما فاتها خلال حملها بنورهان. بدأت بحبورٍ وأناةٍ تحوك بأجود أنواع القطن الجوارب والشراشف للطفل. مارست يومياً تمارين يوغا خاصةً بالحوامل، اتبعت حميةً خاصة في غذائها، كانت تستحم على موسيقى بيتهوفن "Time for Bath"، وتنام على "Goldberg Variations" لجون سيباستيان باخ، المقطوعة التي ألّفت خصيصاً لتساعد الكونت الروسي قيصر لينغ الذي كان يعاني من الأرق، على النوم.

في الخامس عشر من أيار وقبل غروب الشمس بقليل، في غرفتها التي تفوح منها رائحة الصندل ويلفّها ضياءٌ هادئ يتسلل بنفسجياً من الستائر الرقيقة، كانت دلال تمارس تمارين تأمّلها المسائية على وقع مانترا "Adi Shakti" السنسكريتية التي تشحن المرأة بالقوة اللازمة للوضع. شهد رحمها حركة جديدة. انقباضاتٌ خفيفة في أسفل الرّحم تختلف عن تلك التي كانت تشعر بها مذ أصبحت في شهرها التاسع. علمت فوراً أن الطلقات الأولى قد بدأت، فاستلقت على سريرها وأخذت نفساً عميقاً طويلاً. حفظت عن ظهر قلب كلّ التعليمات التي تتعلق بتسهيل الوضع وبتخفيف صدمة الولادة على المولود. راودتها لبرهة فكرةُ أن لا تُعلمَ أحداً ببدء مخاضها،

وكانت على ثقة بأن الولادة لن تستغرق وقتاً طويلاً. تريد أن تتلقاه بيديها، أن تحضنه فور خروجه وتطعمه من حنان جسمها فور إبصاره النور. سعادةٌ كبيرة غمرتها وهي تتخيّل الأمر، غير أن دخول نورهان إلى غرفتها، وقد حان وقت نومها، كهرّة تترصّد حركةً غير مألوفة، أربكها ودفعها إلى الاتصال على عجلٍ بالقابلة، ومن ثمّ بأمها فمنصور الذي تعمّد بعد تخطّيها شهرها التاسع أن لا يقصد أماكن بعيدة عن بيته وعمله كي يصل بسرعة عند الحاجة. "ما رح يترك نورهان تنام لحالها مع الخادمة"، حدّثت نفسها وهي تشعر بأن توقيت مخاضها تواطأ مع عدم رغبتها أن يشهد منصور الولادة.

كانت قد تحدثت طويلاً على انفراد مع القابلة وأقنعتها بأن عليها فقط مراقبة الولادة دون أن تتدخل، إلا إذا استدعى الأمر أو طُلب منها ذلك. في بادئ الأمر، كان صعباً على القابلة نهال التي أخرجت أجيالاً عديدة من أرحام أمهاتهم إلى النور ولم تنجب هي، أن تتقبّل الأمر. لكن في الوقت نفسه، هي ليست "داية دقة قديمة" إذ إنها اطلعت عبر وسائل مختلفة على تطوّر النظرة المتعلقة بقدرة المرأة على الإنجاب منفردةً وأهميته النفسية للأم والمولود، خصوصاً لدى انعدام وجود أيّ مشاكل صحية لديها. لكنّ دلال ستكون المرأة الأولى التي ستضع وليدها أمامها دون أن تمسك هي به ودون أن تقطع حبل الصرّة.

لم يمض ربع ساعة حتى دخلت القابلة تتقدم منصور بابتسامة عريضة وبرشاقة لافتة، رغم مشيتها العرجاء. حضن منصور زوجته

بسرعة، ثم وقف مواجهاً لها ووضع يديه على كتفيها كأنها تحتاج إلى تشجيعه. لاحظ بطَرْفٍ خفيّ الثوب الفيروزي المشبوك بأزرارٍ أمامية على قامتها ونهديها الممتلئين حليباً يموجان خلف نعومة حريره، قبل أن يتوقف للحظات ناظراً إلى وجهها الطلق الذي بدا كأنه تشكّل لتوّه من باقة زهر ربيعيّ بريّ. ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ، راوحت بين الهزل والإعجاب، لها وللأجواء التي وجدها تحوم في الغرفة. صوت المياه تتدفق في مغطس حمّام غرفتها المفتوح جزئياً، تنبعث منه روائح تشرح الصدر تنساب مع صوت موسيقى طقوسٍ أسطورية استحضرت آثور إلهة الخصب والولادة والموسيقى والفرح عند المصريين القدامى. للمرة الثانية، راودته الرغبة في تدخين الغليون وهو بعيد عن طاولة البريدج، لكنه بدلاً من ذلك، حمل برفقٍ نورهان التي رفعت ذراعيها عالياً ما إن رأته. قبّلها ووضعها على كتفيه، ثم التفت إلى المرأتين مرتبكاً قبل أن يغادر الغرفة، وقال كمن التبست عليه وجهته، وحفظاً لماء الوجه، "أنا متأهّب لأيّ طارئ ونهلة واصلة".

"تبدو كأميرة على وشك أن تكلل ملكة"، حدّث منصور نفسه مدهوشاً بتحوّلات دلال ومتلعثماً بالأغنية التي هدهد بها طفلته التي غطّت في نوم عميق ما إن وضعها في سريرها، دون أن تطلب منه أن يخبرها قصصاً، دأب على قصّها عليها، قبل النوم، منذ أن بلغت السنتين. خطر له أن يعود إلى غرفة زوجته ليتابع فصول الأسطورة التي حلّت حيّة في بيته، عندما سمع صوتاً ارتجف له قلبه. لقد هلّ نوّار!

شعر منصور عند ولادة نورهان أنه اكتفى من الأولاد بها، وخصوصاً أنها كانت بنتاً هو الذي ألف عشرة النساء وقد ترعرع بين والدته وأختيه، بعد وفاة أبيه المبكرة. أحسّ بمسؤولية كبرى تجاه أعباء الأبوة التي لم يرد أن تأخذه بعيداً عن جدول أعماله وهواياته ونشاطاته المحكم، وخصوصاً أنه كان يفكّرفي عدم إرسال نورهان إلى المدرسة، وفي تعليمها في البيت على يد معلّم خلّاق. كذلك، فإن التحوّلات التي شهدها في مسار زوجته منذ حملها الثاني، ولّدت عنده شعوراً خفيّاً تسبب له بالاضطراب. فقد اشتهاها كما لم يشتهها. كتم رغبته بعدما شيّدت سياجاً حول جسدها عند بروز بطنها في شهرها الثالث.

نجح منصور في المحافظة على صورته الاجتماعية البرّاقة في عيون المحيطين به، علماً بأنه لم يكن يتردّد في تنفيذ ما يحلو له. كان يشعر بأنّه فوق القوانين الاجتماعية التافهة. عندما كان يبدأ الشبق في الغليان أسفل بطنه، كان يذهب في سفرات خاصة دون أن يشعر بحاجة إلى إعطاء أية ذريعة.

خرجت القابلة من الغرفة مباركةً بالصبي "متل وجه النهار"، ومطمئنةً: "مدامتك مسيو سلمان لازم تولّد كل يوم. يا هيك تخلّف النسوان يا بلا". لم يحتج منصورإلى أيّ معلومات إضافية، انصرف عنها بلياقة وهو يزرع خطواته في أرض الصالون الفسيح، شاعراً بفطرته أنّ عليه التمهل قبل الدخول لرؤية طفله الجديد. "لتكمل الآلهة؟ طقوس البعث"، ردّد شبه هازئ في نفسه، وتناول دون مقاومة عدّةَ غليونه وخرج إلى الشرفة المطلة على البحر مستسلماً

لمتعة حشوه ولرائحة التبغ الهافاني الصافي تتمازج مع الرائحة المالحة التي تنقلها إليه ريحٌ لطيفة.

"مبروك. مبروك. مبروك. شو مغيّرين عاداتنا؟"، سمع نهلة تصدح من ورائه. نهض مستجمعاً بنات أفكاره وبادرها متضاحكاً: "أنا في بعدك مفقود الهدى... ضائع أهفو إلى نور كريم". كانت على وشك أن تفتح فمها لتردّ عليه، عندما أضاف وهو يحضنها: "الهنا مشترك... أم نديم".

"مدامتك طلبت مني عبر نهال أنو استنّى شوي قبل ما فوت شوفها"، قالت تطلب مواساةً منه. "يا سبحان اللي بغيّر ما بيتغيّر يا حماتي"، أجابها وهو يتلاعب بصوته مضيفاً كأنه يطمئنها: "يللا موال وبدها تغنيه بنتك. خليها طالعة طلعتها، المهم إنه كل شيء تمام، تمام". أشار إليها بالجلوس على الكنبة العريضة الوثيرة حيث تحبّ عادةً أن تجلس خلال جلساتهم على الشرفة. "رح اسكبلك كاس ع ذوقك ونشرب كاس سلامة أم نوّار"، قالها وهو يتوجه إلى الداخل كأنه يعلم ما تريد دون أن تتكلم.

مضت ساعتان كادتا تُنسيان منصور ونهلة دلال التي كانت تنعم بانفرادها بطفلها، شاعرةً أنها وإيّاه يحلّقان على سحاب الكنهور، بينما تنتظر نهال، التي استبقاها منصور لكي تسهر على زوجته، في الغرفة المجاورة إشارةً من دلال لتتمكن من إعطاء الإذن بالدخول.

تسمّرت نهلة على الباب ما إن وقع نظرها على ابنتها ولم ترها يوماً من قبل بهذا التألّق والثقة والتوهّج. "mais tu es métamorphisée ma fille"، قالت، وتقدمت نحوها وهي تشعر بمهابةٍ لم تختبرها من

قبل أمام أحد. أقبل منصور نحو زوجته التي بدت خارجةً من منتجع وليس من مخاض، وقد تربّعت على سريرها برفعةٍ حاضنةً طفلهما، وأخذ يتأمّل بصمتٍ وجه الصغير مغموراً بهناءٍ بثدي أمه.

٣

تردّدت نورهان في قبول كأس الشامبانيا التي قدّمتها لها المضيفة مع صحن مقبّلات، قبل أن تعود وتقبل عليها علّها تساعدها على النوم خلال ساعات الطيران الأربع. رشفت رشفة واحدةً والتهمت دون تذوّق ما كان في الصحن. كانت معدتها الخاوية قد بدأت تتسبّب لها بمغصٍ مؤلم.

"صحتين"، وصلتها من صوتٍ كهلٍ أجشَّ يجاورها كأنّ صاحبه كان يراقبها على غفلةٍ منها. "شكراً سيدي"، ردّت بابتسامة طفيفة دون أن تنظر إلى وجهه مباشرةً، ثم أدارت وجهها نحو الشباك المحاذي لكرسيّها لتجد أن الطائرة قد أصبحت تحلّق فوق غيومٍ كثيفة حجبت رؤية الأرض كليّاً. فتنتها أشكال الغيوم منذ طفولتها، لكنها كانت تشعر بنعاسٍ شديدٍ دفعها لأن تضع حاجب الضوء على عينيها علّها تغفو.

سطعت في لجّة الظلام الذي أحاطها صورٌ من ذكرياتها. كانت الحياة بوجود نوّار أعياداً متتالية. يتمدّدان على العشب في حديقة بيت تاتا نهلة الجبلي، أو على شاطئ البحر عند زيارة الجدّة نزهة في

الجنوب، يراقبان الغيوم ملاحقَين تغيّراتها، يشبّهان كلّ شكلٍ ينتج عنها بحيوانٍ أو بشخصٍ أو بغرضٍ ما. كان خيالهما الطفوليّ العاري من الحدود يطير بهما إلى ما فوق السحاب، فيركبان معاً الحصان المتشكّل منه، يحلّقان على أجنحة البجعات، يقطفان زهوراً عملاقة "للماما والبابا"، يطاردان الفراشات من زهرة إلى أخرى، يتخاوفان مرحاً من ديناصور كبير يظهر فجأةً كأنه يتّجه صوبهما، وينتقيان الألوان من قوس قزح ليلوّنا بها دفاتر رسومهما، يتسلّقانه كي يلقيا التحية على الله.

غمرت نورهان البسمات وهي تستعيد السنوات التي عاشتها برغد برفقته، وتلوّنت روحها بنسماتٍ لطيفة كمن يجلس تحت شجرةٍ لزّابٍ معمّرة تزفر بنشوةٍ عند الفجر طيبَ ريح الزهر بعدما واصَلَها طوال الليل. بقيت ذكرياتها هذه محتجبةً في جارورٍ مغلقٍ بإحكام كلَّ هذه السنين الطويلة، وها موت أبيها ينبش قبر نوّار ويعيده حيّاً إلى طفولتهما السعيدة، ثم يعيد إليها مرضه ولوعة موته التي عصرتها. دمها الآن يمصل كما ينفصل الماء عن الزيت عندما يُسكبان في كوبٍ واحد.

كما يغزو الذباب جرحاً مفتوحاً على وجه طفلٍ، داهمتها رائحةٌ زنخةٌ خبيثةٌ ثقبت خياشيم حقل ذكرياتها الجميل، فخلعت بعنفٍ حاجبَ الضوء عن عينيها، ووثبت واقفةً مستأذنةً من جارها السماح لها بالعبور. تفاجأت حين وجدت أنّ من ظنته رجلاً من صوته، كان امرأة مسنّة فاحشة الطول يدلّ كلّ ما فيها على فتوة، لولا التجاعيد التي تكونت غضوناً منتظمة على وجهها وجبينها، والترهل البادي

على ذقنها. "يمكن شَكَر لا أنثى ولا ذَكَر. هيئتها مش طبيعية، متل المشعوذين". "تفضلي يا ملكة وخدي بالك ما تتفركشي"، قالت لها جارة الطائرة وهي تقف منتصبةً مادةً يديها ومحنيةً وجهها مع ابتسامة كشفت عن أسنان سيراميك مثالية بدت متناقضة مع سنّها المتقدّمة. "ليه سمتني ملكة هيدي الحشورة. شو حزرت نصف إسمي متل الساحرات الشريرات؟" حدّثت نورهان نفسها وهي تمشي بتأنٍّ نحو الحمّام كأنها اقتنعت بنصيحة العجوز بعدما شعرت بدوار خفيف.

"أنا مدام شمس" بادرتها ما إن رجعت واستقرّت في مقعدها. "تشرّفنا"، ردّت نورهان بصوتٍ خافت وهي تحاول تجنّب النظر إليها علّها تكفّ عن مطاراداتها المزعجة. تنحنحت مدام شمس ومالت بجسدها نحو نورهان لتبدأ الكلام من جديد، غير آبهةٍ بإعراضها الظاهر عن الكلام أو الإصغاء. "عم اسمع ضجة... قلق واضطراب عم يخرقوا صمتك"، قالت لنورهان بلهجة هامسة كأنها مصممة على النجاح في جذبها إلى الحوار. "عفواً مدام"، أجابت نورهان وهي تشعر بثقل روح هذه المخلوقة، وأضافت بعد لحظة تردّد وهي تنظر إلى عينيها اللتين ذكّرتاها بالكلل: "ما فهمت عن شو عم تحكي". "الإنسان إجمالاً بيلتقي بقدرو ع الطريق اللي بحاول دايماً يتجنبها"، أجابتها العجوز وهي تزمّ عينيها حتى كادتا تختفيان مطلقتين شعاعاً شعرت نورهان أنه يصيبها كسهم. "مش مهم شو المكتوب مدام... نحن منقولب أقدارنا"، أجابت نورهان بلهجة تحدّ وأدارت وجهها نحو الشباك آملةً أن تتركها هذه "الهردبة" بسلام. ابتسمت لتعبير الهردبة، كأنها تحيي عبارات أبيها وهي في

طريقها إلى جنازته. كانت الطائرة مزدحمةً بالركاب ولم يكن هناك مقعد واحد شاغر، وإلا لكانت نورهان طلبت من المضيفة أن تبدّل لها مقعدها فتسلم من قارئة الأقدار هذه.

"هممممم... هذا التصلّب والعناد... برجك الثور"، قالت لها مدام شمس بصوتٍ خافت واثق وهي تقترب من أذنها مع شعورٍ فائض بالانتصار. حاولت نورهان أن تخفيَ مفاجأتها بصواب تقديرها، فأجابت بسرعةٍ مع بسمةٍ مفتعلة "غلطانة مدام... أنا من برج الحمل"، وانتبهت فوراً إلى أنها تبنّت برج نوّار فيما كانت تحملق في عيني المدام متحدّيةً.

"يا بنتي"، تابعت قارئة البخت غيرَ مبالية بردّ فعل نورهان، "في أفاعي بتنام فينا أطول ما بتنام تحت الأرض بفصل الصقيع، بس تصحا ما لازم نسدّ الباب عليها وإلا قضت علينا بسمّها". نفضت نورهان نفسها حتى كادت ضفيرتها تنفلت، وخاطبتها بصوتٍ أعلى من نبرتها المعتادة: "مدام، هيدي استباحة سمجة للناس، أرجوك"، ثم وضعت على عينيها حجابَ الضوء كمحاولةٍ أخيرة لإسكاتها دون إثارة ضجة في الطائرة.

بقيت عينا المدام تقدحان في عتمتها ككابوسٍ يصعب التخلّص منه، وكلامها يتردّد كأنه سُجّل على أسطوانةٍ مجروحة. كانت نورهان تؤمن بتأثير العوامل الطبيعية على حياتنا وتعتقد أن التاريخ الذي ولدنا فيه يلعب في تحديد صفاتنا الشخصية، كما يؤثر المناخ كلّ سنة بشكل مختلف على نوعية غلة النبيذ. كانت تجد أنه ليس هناك برجٌ أكثرَ توافقاً مع شخصيتها من برج الثور، إلا أنها كانت تستخفّ بعلم

التنجيم وتعتبره هرطقة. "كذب المنجمون ولو صدقوا"، كما كان يردّد أبوها.

عندما اعتلّ نوّار، أخذت أمّها تتردّد على البصّارات بعدما عجز الأطباء عن تشخيص السقم الذي أصابه ونخره أو معالجته. زارت أماكن مقدسة مسيحية وإسلامية. أحيت الليالي صلاةً ورجاءً بجانبه، تتألم وتراقب جسده يضمر يوماً بعد يوم، على مرأى من عينيها. نذرت نذوراً إلى القديسين والقديسات والأئمة والمحتاجين. مسّدته بالزيوت المباركة التي أوصت عليها من معابد مختلفة. علّقت في جوانب سريره الحجب والتمائم التي طلبت من أولياء صالحين أن يكتبوها طلباً لشفائه. ذهب بها الأمر إلى أن لجأت إلى التعاويذ لاستخراج الأرواح الشريرة التي اغتصبت نضارة طفولته. أصبحت دلال مثل نملة بقرنَي استشعارٍ لا يستكينان بحثاً عمّا يمكن أن ينتشل طفلها من وحشة مرضه. حاولت بكلّ ما فيها من وجدٍ مقهور أن تؤجّل مواراته علّ نذراً آخر يشفع به، دواءً يُكتشف خصيصاً لأجله، أو معجزة تأتي من قوة خارقة فتردّه إليها. كانت مقتنعة بأن أمومتها وقوة حبها ستتفوقان على قوانين الطبيعة والمرض وستنتصران في حربهما ضد الشرّ الذي تطاول على ريعان طفلها وجماله.

عندما جاؤوا ليأخذوه من حضنها بعدما فارق الحياة، ظنّ الجميع أنها فقدت صوابها إذ فكّرت بإعادته إلى رحمها، الأمر الوحيد الذي لم تجرّبه لتنقذه.

استرجعت نورهان ملامح أبيها يائساً أمام شجن أمّها. بدا منتفخاً داكناً، كما لم يبدُ يوما. نظراته جزعة. لم تفهم نظراته التي ترتدّ الآن

واضحةً إلى مخيلتها كأنها عثرت لِتوّها على فيلم عالي الجودة. كان والدها هازئاً من محاولات زوجته المتطيرة لإنقاذ طفلهما، ملتاعاً ويائساً في آن واحد. بينما كان يحاول التعامل مع وضع زوجته المفجوع بحكمة، حاول جاهداً أن يحمي طفولة نورهان اللدنة من قسوة الألم الذي تشعر به على أخيها. في الأيام الأخيرة قبل صمته الأبديّ، كانت تقف وجلةً أمام أمها، تحوم حول سرير أخيها تلاعبه وتحادثه، وإذ لا يستجيب تجلس بجانبه بلا حولٍ ولا قوة وبصمتٍ حائر أحرق قلب منصور، أو تستلقي بجانبه بوجه بللته عَبرات تكبرها بأعوام.

لطالما قيل إنّ نورهان حصة أبيها ونوّار حصة أمه. لم تُنقص ولادة نوّار قطرةً من اهتمام أبيها بها حتى أنه كرّس لها وقتاً يومياً كما يخصص المؤمن وقتاً للعبادة، فعلّمها في ما علّمها أن تحفظ الشعر، ألّف لها نكات تُضحك الأطفال، "تورشن" معها، وقصّ عليها حكاياتِ الجنيات والسحرة. وعندما أدرك نوّار سنَّ التعلّم واللعب، بقي دوماً ملحقاً وبقيت هي تحوز على اهتمامه الأكبر. أُشبعت نورهان بحبّ أبيها وتعلمت الحب والعناية من حبّ أمها لنوّار فأخذت، باكراً، تسكب منه الكثير تلقائياً على أخيها كأنها وُلدت أمّاً.

"قوم نوارو... قووووم"، قالت له ويداها الصغيرتان تهزّانه بنعومة. كانت قد جاءت كعادتها في الصباح الباكر إلى غرفته، فنظر إليها للحظات معدودة. كرّرت ثانية برجاء أكبر "قوم نوّارو قووووم"... ربما لم يُرد أن يغمض عينيه إلى الأبد إلّا على وجهها

كي لا يدعها وحيدةً أو كي لا يرحل وحيداً. قد يكون ناداها خلال الليل ولم تستجب، فانتظر متألماً. ربما رغب في أن تحكي له قصة أخيرة، أو أن يتأملا معاً الغيوم ويركبا قوس قزح.

على السرير المجاور، كان النوم قد ثنى رأس دلال، بينما كانت لا تزال في وضعية الجلوس. هبّت نحو سرير نوّار وهي تسمع صوت ابنتها وقد حضنت أخاها ووضعت وجهها على وجهه، وهي تغني له ككل صباح بصوتٍ أعلى من العادة، علّ ذلك ينجح في إيقاظه، "كان عندي عصفور جميل وغندور... عبكرا بكير... بفيّقني. عم غني قوم يا نوّار... قوم حاجي تنام...". تحوّلت توسّلات نورهان التي لم تلق جواباً إلى وجعٍ حفرت رائحته الحارقة فجوةً عميقة في الصمت الذي ساد الغرفة. رحل نوّار مثل ندى الصباح باكراً قبل أن ترتفع الشمس في الأفق.

"يعني ما عاد عندي نوّارو؟"، سألت نورهان وعيناها تتسعان كما تتسع دوائرُ تنتج عن رمي حجرٍ في بحيرة ساكنة. "أخدوه الملايكة لأنهم بحبوه"، كان جواب الكبار. "ليش ما أخدوني معه، مع مين رح يلعب نوّار؟ بركي ضربتو سيارة... بركي وقع عن البيسيكلات؟". بعدها، أصبحت الملائكة في مخيّلة نورهان هياكلَ عظميةً مرعبة، فصمتت لوقت طويل مثير للقلق لم تُفلح جهود أبيها و"سعدناته المضحكة" في إخراجها منه بالسرعة التي توخاها.

حطّت الطائرة بهدوءٍ في مطار بيروت. وحدها نورهان بقيت في مقعدها متسمرةً على صليب ذكرياتٍ تدفقت بعد طول انحسار ينابيعَ ساخنةً من جوفها.

"Bon courage ma fille"، تدحرجت الجملة على مسمعها مثلَ صفارة إنذار من فم "الهردبة" التي وقفت بطولها تستعدّ لمغادرة الطائرة. لم تحرك نورهان ساكناً رغم رعدة أحشائها لسماع نعيق هذه الفضولية الوقحة.

كمن يغطي طفلاً نائماً بأمان، أجالت بلطف عينيها إذ شعرت بالهدوء الذي خلّفته مغادرة الركاب، فقرّ ناظرها بالفراغ الذي حطّ في الطائرة.

في المدى الذي يفصل بينها وبين المضيفة التي كانت تنتظرها بابتسامة عريضة، امتدّ حقلٌ مغناطيسي سالب أعاق تقدم خطواتها نحو البابِ. المسافات تطول أمامها وهي تتوجه نحو حرم المطار، وأحداثٌ وصورٌ ومشاعرُ تعثّر خطواتها. استوقفتها لأول مرة تلك الرغبة الدفينة في عدم العودة إلى لبنان، ترافقت مع ذكريات ملتبسة ما تكاد تصبح واضحةً حتى تتوارى. تساءلت إن كانت ستجد أمّها نائمةً كعادتها، أو إن كان موت زوجها قد بعث فيها بعض الصحو.

كم كان البيت موحشاً عندما كانت تعود من المدرسة إلى البيت بعد رحيل نوّار، ولا تجد إلا الخادمة في استقبالها! اشتمّت رائحة حقدٍ مكتوم وراء الشفقة التي كانت تشعر بها تجاه أمها. كانت تسترق النظر من خرم باب غرفتها لتتأكد أنها لم تلحق بنوّار، وتنتظر موعد مجيء أبيها خائفةً ألا يرجع. تتناول القليل من الطعام وتتساءل إن كانت الهياكل العظمية تُطعم نوّار.

كيس الذكريات هذا لم يعد مقفلاً بإحكام، بدأ عنوة عنها يسرّب مخزونا طفح. تذكرت كلام مدام شمس، "صح فالها هالخبيثة"،

قالت لنفسها بتعجب وهي تستعيد كلماتها التي ألقتها عليها مجاناً ودون استئذان. تمنّت أن لا تراها وهي تغادر المطار، وسُرّت إذ تذكرت أنها لن تتوقف في مكان تسلّم الحقائب، إنها تحمل حقيبة سفرها بيدها.

"كيف بكون العزا، كيف بتكون الجنازات؟"، تساءلت وهي تتذكر أنها لم تشارك في أيّ منهما يوماً. أرسلها أبوها بعد وفاة نوّار إلى بيت تاتا نزهة في الجنوب، ظنّاً منه أنها ستكون في مأمن أكبر وستسلو بعضاً من حزنها في كنف عمّتيها اللتين تعوّضان عن أمومتها المفقودة بالاهتمام بها، ستكون بصحبة أولاد ناطور البستان، وستذهب معهم للسباحة في البحر الذي تعشقه قبالة المنزل. هناك، ستكون بعيدةً عن مرأى أمّها المفجوعة، وعن البيت الذى خلا من نوّار وامتلأ بالصخب الذي يرافق تقبّل العزاء. "بيكفي الطفلة من شهور عم بتشوف خيّها عم بموت قدّام عيونها"، فكّر منصور بحرقة وهو يحاول اجتراح حلٍّ ما لحماية ابنته.

وسط ضجيج المستقبلين والإعلان عن موعد وصول الرّحلات ومغادرتها ، سمعت نورهان وهي تمشي مستقيمةً غيرَ ناظرة إلى أحد، ميساءَ تناديها. فرحت بهذا الصوت الذي تحبّ ولا يزال طازجاً في أذنيها، ولو كان في نيّتها أن تستقلّ "تاكسي" من أمام باب المطار لتصل بصمتٍ وهدوء إلى بيت أهلها. بلّلها عناق صديقتها بالدموع وبقيت عيناها جافّتين مفتوحتين واسعتين كقبرين على أهبة استقبال جثمانين. "تيريز اتصلت من باريس وخبرت طنط دلال انك واصلة ع الميدل ايست. جيت أنا وواكيم... الكل ناطرينك بالبيت"،

قالت لها ميساء وهي تحاول أن تستمهل دموعها التي فاضت فرحاً بلقاء صديقة عمرها وشقيقة روحها، وحزناً للمناسبة التي استقدمت نورهان إلى لبنان.

رائحة بيروت التي صفعتها ما إن وطأت حرم المطار الخارجي نتنةٌ، كأنّ المدينة لم تدفن موتاها منذ زمن طويل. "هيك صارت ريحة بيروت؟ هيك صارت تستقبل السياح؟"، سألت نورهان صديقتها بحزن واشمئزاز. "يمكن ما كنت بدي إرجع حتى ما شمّ هالروائح"، فكّرت كأنها تبرّر لنفسها غيابها الطويل. هزّت ميساء رأسها الصغير المستدير وزمّت شفتيها دون أن تعلّق، كأنها كانت تنتظر من نورهان أيّ كلام غير هذا الكلام رغم صحته.

كانت عينا واكيم الذي كان ينتظر بجانب السيارة حمراوين إما من كثرة البكاء على منصور وإما من قلة النوم، لكنّ الفرحة التي سكنتهما ما إن وقع نظره على نورهان غسلتهما بلحظة. "كنت بتمنى شوفك بغير هالمناسبة يا حبيبة قلب عمو واكيم... غيبة طويلة"، وأخذها في حضنه حيث أرخت رأسها كأنها ترتاح على صدر أبيها الذي أيقظ واكيم شوقها إليه وكلّ أغاني طفولتها.

لم يستقل الكلام معهم السيارة المتوجهة إلى عين المريسة بل رافقهم الصمت معلناً مبكراً عن بدء مواكبة الجنازة نحو الجنوب.

٤

كان نور القمر المكتمل يتسلّل إلى داخل دارة آل سلمان، ثم يختبئ خلف غيوم انتشرت متباعدةً في سماء البلدة. الدارة التي يفصلها عن البحر ولا يحجبها عنه، بستانُ حمضيات وموز، وحديقةٌ كبيرة زرعتها أمّ منصور بالورد الجوريّ والياسمين وبالخضار التي تغني يومياً مائدتهم. يصل عواء الكلبة المتقطع نحيباً إلى الصالون الكبير الغارق في سكينة الصلاة، وترتطم على حيطانه وطاويط الليل، وتصخب أوراق الأشجار ومعها روائح الياسمين، كلما ارتفع نسيم البحر البارد نحو سماء تموز الحار. بيت حارس الدارة في وسط البستان متيقظ، يسهر أفرادُه مشاركين أسيادهم الحزن من بعيد.

كان جثمان منصور قد نُقل إلى بيت أهله في أقصى الجنوب، ما إن وصلت نورهان إلى البيت في عين المريسة حيث وجدت أمَّها تنتظرها بلهفة المشتاق، مع بقية أفراد العائلة، جدَّتها نهلة وخالها نديم واثنين من أبناء عم منصور، ناجي وسماح، أتيا من الجنوب لتسلّم جثة منصور من المستشفى ومواكبة الجثمان الذي نُقل في سيارة مخصصة لنقل الموتى.

استقلت نورهان السيارة مع ناجي وسماح، جلست في المقعد الخلفي إلى جانب أمها، بينما ذهبت صديقتها ميساء مع نهلة في سيارة العائلة التي قادها واكيم وإلى جانبه نديم.

في السيارة التي يقودها سماح بتوتّر ظاهر ولو بسرعة معتدلة تتجانس مع سرعة السيارة التي تنقل جثمان منصور وتتقدمه، أمسكت نورهان يد أمها بيديها الاثنتين، وبقيتا لوقت غير قصير صامتتين، تنظران بين فينةٍ وأخرى الواحدة إلى وجه الأخرى وقدعلت وجه نورهان أسئلة كثيرة. حضنت دلال ابنتها، فشعرت نورهان بدقّات قلبِ أمها المتسارعة وبللت عنقها عبراتٌ انهمرت منها بغزارة. شعرت دلال أنها تسترجع ابنتها إلى حضنها بعد وقتٍ طال أكثر من غيابها.

"كيف مات بابا؟"، سألت نورهان وهي تبتعد بلطفٍ عن صدر أمّها لتنظر في وجهها الذي يبدو الإنهاك واضحاً عليه ويلتبس مع الحزن الذي تعودته نورهان في هذا الوجه الشاحب وتينك العينين الواسعتين. "فقت الصبح واستغربت لأن لقيته قاعد بالدار. سألته ليش ما راح متل عادته للمشي. قللي إنو دايخ وطلب مني كباية مي. لحظات ورجعت... لقيته فاقد الوعي..."، أجابتها دلال، متكتمةً عن أنها وجدته قد تقيأ خلال غيابها القصير وقبل إغماءته، كي لا تضيف كمداً على حزن ابنتها التي لم تر أباها يوماً مريضاً، وربما لأن ذكرى التقيؤ تستحضر معها مرض نوّار. "تلفنت للإسعاف وواكيم حضر بسرعة، ما تأخرنا"، قالت دلال كأنها تؤكّد لابنتها أنها لم تتقاعس قطّ عن نجدة أبيها. "دبحات قلبية متتابعة قتلته. ما قدروا

يسعفوه الأطباء"، أضافت دلال قبل أن يحلّ الصمت مجدداً بينها وبين ابنتها حتى وصولهما إلى دارة عائلة منصور.

أخذ سماح وناجي يخبران نورهان مداورةً عن مدى إعجابهما بابن عمهما منصور الذي تمرّد على قوانين عائلتهم الصارمة، بعكسهما هما إذ لم يتجرّآ على الحذو حذوه فبقيا دون تحقيق أحلام شبابهما.

"كنا نحنا وصغار نلحقه، من صغره قائد... كان يسوقنا كيف ما بدو... ما كان شي يوقف بوجهه... كان عنده تأثير السحر علينا..."، قال ناجي وهو يبتسم للذكريات مع منصور كأنها كانت تداعبه. أردف سماح بحماسة كأنه يكمل جملة أخيه: "كان يقنعنا أن كل شي بيعمله صح ولو كان ممنوع... كان دايماً يخلّص حالو ويخلصنا معه من العقاب اللي ناطرنا لمن تنكشف مشاغباتنا".

شعرت نورهان أنها لم تقض وقتاً كافياً مع أبيها. رحل قبل أن تتعرف إليه خارج عالم الأبوة والبنوة. للآباء وجوه نبقى نجهلها إلى حين موتهم، حين يبدأ الآخرون الحديث عنهم لملء فراغ رحيلهم. توالى حديث قريبيها عن أبيها فتساءلت إن كان شعور الأحياء بالإنفراج لاختيار الموت غيرهم، يولّد لديهم بالمقابل شعوراً بالذنب يحاولون تطهيره بالحديث عن الراحل. هكذا، بين التفكير في الموت ووجوه أبيها التي كانت ترسمها كلمات ناجي وسماح عنه، استفاق الحنين الذي تتجنبه مع رؤيتها للأفق البرتقالي وقد لوّنه البنفسجي، يفترش بعناية منعطف السماء فوق البحر، مع إعلان شمس نهار تموز الطويل استئذانها قبل المغيب.

في وقتٍ وجوٍّ مماثلين، كانت الرحلات مع أبيها وأمها ونوّار تبدأ نحو الجنوب. مشاوير فرح كان يزرعها أبوها غناءً ومرحاً حتى يصلا إلى بيت "تاتا الحاجة" التي كانت تنتظر زياراتهم، بكثيرٍ من الحب والهدايا المبهجة، إلى جانب روائح البسكوت والحلويات التي تتسلل من مطبخها، فتملأ نورهان ونوّار بذلك الشعور بالحبور الذي يملأ الولد عندما يغوص في حضنٍ حنون. كم كان نوّار يحب اللعب في عجينة البسكوت والأكل منها قبل طبخها، فتخصص له أمّ منصور كمية ليصنع منها أشكالاً مختلفة ويصرّ بعدها على إدخالها إلى الفرن ليخبزها وليوزعها من ثم على الجميع. كان ماهراً في استعمال يديه، "كان يمكن صار نحات أو رسام"، فكرت نورهان وهي تستعيد بوضوح هذه الأشكال وتتذكر تاتا الحاجة وهي تضمّه بعد إنجاز عمله وتغني له أغنية صباح "يا معمرجي يا معمرجي، عمّرلي بيت يكون فرجه...".

"أف"، تنهيدةٌ أفلتت من فم نورهان إذ فكّرت بأنها ترجع اليوم إلى جدتها دون نوّار ودون أبيها. "كيف عرفت التاتا؟"، سألت بصوت يبتلع دموعه. "ايه... الله يساعدها ع هالخسارة"، قال سماح بغضبٍ وهو يمسح دموعه، بينما عصرت دلال كلامها داخل قلبها، "الله لا يعيّش حدا هيدا الوجع". نظرت نورهان إلى أمها وشدّت على يدها وهي تسمع صدى "هيدا الوجع" من قلب أمها وقلبها، يرتطمان فوق معدتها. "كأنّ موت نوّار كان آخر خسارات أمي... من بعده، صار كلّ شيء مقبولاً... كانت تحب بابا؟ كانا بالأحرى يعيشان تحت سقفٍ واحد متباعدين، غير أنهما لم يكونا مستقلّين،

رغم تفلّت أبيها من أمها في معظم الأوقات. كانت علاقتهما مثل أثاث ورثاه أباً عن جد، حافظا عليه، واعتنيا به عنوة عنهما، رغم عدمٍ إعجابهما به.

معظم الصور التي تحتشد في ذهن نورهان عن والدها تغيب عنها دلال، مقابل حضور نهلة الكثيف، أحاديثهما، ودّهما المتبادل، المزاح، ورق اللعب المتنقل بين أيديهما. قوس قزح من الذكريات نشر نفسه في بحر مخيلتها طوال الطريق.

عند ترجلها من السيارة التي توقفت أمام باحة الدارة المواجهة للحديقة المضاءة باكتمال القمر، استمهلت نورهان خطواتها لتتنشق بقوةٍ رائحة الياسمين التي كانت تمطر شذاها الليليّ بكرم. مسحت بنظرةٍ سريعة الجنينةَ، قبل أن تتوجه وهي متهيبة لملاقاة "تاتا نزهة". ركعت بين ساقيها وألقت رأسها على ركبتيها وهي تضمّ خصرها، لتستوي جالسةً بعد حين إلى جانبها. لم تقم تاتا نزهة بالاحتفال بحفيدتها كعادتها عند وصولها، اكتفت بضمّها والنظر مليّاً في وجهها عبر عينين يطفح بهما الحب الذي خطب ودّه الحزن.

كانت أم منصور تمشي نحو التسعين، أما وقد داهمتها خسارة ابنها، ارتسمت خطوط عمرها الطويل جلية ما بين غسقٍ وفجر. انحنى الظهر الذي كان منتصباً وبانت شرايينها الزرقاء كأنها تريد تمزيق جلدتها البيضاء الرقيقة. بصوتٍ شجيٍّ كان ابنها قد ورثه عنها، وجّهت دعاءها إلى الله، وهي ترتجف:

"...اللهمّ أبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار.

اللهم عامله بما أنت أهله ولا تعامله بما هو أهله، لإن كان محسناً فزد في حسناته وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته...".

تنظر نورهان إليها وقد جفّف الأسى كلّ دموعها وهي توجّه الدعاء من قلبها المحروق، علّ الرحمة ترافق وحيدها إلى العالم الآخر، لكنّ تأثرها بدعاء جدتها لا يمنعها من أن تَتَخَيّل أباها ساخراً من هذا الكلام لو قُدر له سماعه. كان يُعلّمها ألّا تخاف أحداً بمن فيهم الله. "الأديان بترسملك حياتك كأن ما عندك عقل... سجن يا بابا... سجن للخيال والحرية"، كان يقول لها وخصوصاً عندما تعود من زيارة لتاتا الحاجة، وخوفاً من أن تتأثر بتعاليمها فيكبّلها الحرام والحلال اللذان صمّغ كلام أمه عليهما أذنيه، حتى بعدما شبّ وغادر المنزل العائلي.

لكن نورهان كانت تحاول سلوك طريق لها مختلف عن هذا وذاك. لم تلتصق بأيّ من الأديان، كما لم تسخر منها. لم تساعدها تعاليمها ولا الهزء منها على التخلص من غضبٍ عميق يسكنها دون ملامح، ويأتيها من وقت لآخر على هيئة ضيق واختناق. ساعدها التأمل واليوغا فاطّلعت على الفلسفة البوذية وشعرت بتماهٍ كبير معها. اقتنعت أن السكن في الماضي أو القلق على المستقبل، هما مضيعة للوقت، فوجدت نفسها تنهمك وتعيش اللحظةَ الراهنة بكل تفاصيلها. لكنّ الحاضر الذي تعيشه الآن أحدث خللاً في توازن حرصت عليه، إذ فتح كلّ ثقوب الماضي كما يفعل العثّ في السجاد.

في بهو الطابق الأرضي الواسع الملحق بمطبخ وحمام، حيث جلست إلى جانب جدتها، كان يتمّ غسل جثمان أبيها في الغرفة

المجاورة، بحسب الشريعة الإسلامية. "كحل عيون أبنائي بموتي ولا تذلني بموت أبنائي... استغفرك يا الله... مش ذل حكمتك يا الله بس خدني معه... خللي هالكفن الي واله... متل ما مات أبوك متت يا ابني... بكير... بكير يا منصور"... تسمع تاتا نزهة تندب ابنها الوحيد بحسرة وهدوء، وهي تحمل الكفن الذي أعدته لنفسها قبل أن تذهب منذ سنوات طويله لتأدية مراسم الحج في مكة المكرّمة. "ليش... ليش هو بالقبر قبلي يا ألله... حكمتك يا ربي!"، تصرخ، لتعود وتمحو اعتراضها بسيل من الاستغفار والصلاة، وأوردة قلبها تتمزق.

لا تشبع نورهان من النظر إلى جدتها. تشعر أن الإله يزورها كلّ ليلة ويحمّمها بالنور حتى مطلع الفجر. إنها هالة من الصفاء في ملامح مضيئة. عناية ربّانية جعلت من وجهها السموح مرآةً لسلام استقرّ في قلبها ولنقاوة توأمت مع روحها. تتأملها نورهان ببهجة تصل حدّ البكاء. "عم تتوهج كل ما كبرت وبالرغم من كل الحزن، هيدا جمال روحها عم ينعكس على وجها"، حدثت نورهان نفسها وهي تتأمل جدتها بعد كل سنين الفراق عنها.

تعرف نورهان أن ما سيواسي جدتها هو إيمانها بأن الحق هو كل ما يشاؤه الله. لم تسمعها مرةً تحتّج على صنيعه، مهما حلّ بها من مصائب. اليوم، يأتيها الاحتجاج من قلبها الذي يبدو أنّ ناراً لا تخمد قد هبّت فيه.

كادت تطوف الدار بدموع الموجودين، حين اتجهت أم منصور بخطى ثقيلة لتسليم كفنها كي يتم تكفين ولدها به، بينما كانت

نورهان تتأبط ذراعها خوفاً عليها من أن تقع. "كيف كفنوا نوّار؟"، تساءلت نورهان. لم يخطر على بالها هذا السؤال من قبل. "غسلوه؟ شو لبسوه؟ كيف ما بتذكر... وين كنت؟ كنا نتحمم سوا، نلعب بالمغطس ونرش بعضنا بالمي. متى أصبح نوّار يرفض أن تدخل معه للاستحمام؟ كان، من قبل، يُجبر عليه عندما لا يكون برفقتها.

انتشرت رائحة الكافور ما إن دخل الغسّالون يحملون جثة منصور ليضعوها في وسط البهو الكبير المخصص للمناسبات، سارّةً كانت أو مفجعة. تعرفت نورهان إلى رائحة هذا الزيت الذي له استعمالات عديدة في "homéopathie" (المعالجة بعلم الأعشاب)، منها التطهير وعلاج الحكّة والفطريّات ووجع المفاصل وتنشيط الدورة الدموية وطرد الحشرات وغيره. تذكرت أن البعض يدمن تنشّق رائحته، لكنها لم تكن تعرف أنه يتمّ غسل الميت به. من الآن فصاعداً، سترتبط ذكرى هذه الرائحة بالموت، بجسدٍ كان بيتَ أبيها وقد غادره بغتةً محوّلاً إياه إلى جثة لا تشبه طيور ضحكاته المحلّقة.

"تاتا... تاتا.. أنا معك"، قالت نورهان لجدتها عندما فاحت الرائحة مع دخول الجثمان. تأبطت ذراعها لكي تساعدها على الجلوس على الكرسي الذي وضع لها بجانب التابوت، واصطفت إلى جانبه أربعة كراسٍ بشكل شبه دائري، لها ولأمها ولعمتيها حيث سيسهرن على جثته. جلست نورهان بين أمها وجدتها وهي تشعر بأنّ كلّ ما يدور يشبه المنام. تجرّأت برغبة التأكد من حقيقة ما يجري، فألقت نظرة على داخل التابوت. "بابا اللي كانت الدنيا كلها مش سايعته، هلق صار هيدا الصندوق الصغير بيته! شبع من الحياة؟ ما

بقدر إتخيل أن الموت انفرض عليه... معقولي يكون هو طلب من الموت ياخده؟ ما بتذكر حدن أجبره يعمل شي ولا حتى أنا... أنا بعرف أنو قادر يكسر القبر اذا بدو... ليش قرر يموت؟ معقول هلق يقوم ويخلص المنام؟".

"أنا معك... أنا بجنبك"، ترددت هذه الجملة التي قيلت لنورهان حين قبض عليها الخوف عندما كان نوّار مريضاً. وعندما استفاقت في الليل خائفة، رأت سيدة كبيرة تجلس على حافة سريرها وتغمرها بحنوها، سيدة كالتي كانت تخبرها عنها جدتها حين تزورها كي تجعلها تنام بأمان. "ستي زينب بتحرس الأولاد شو ما صار ما تخافي، هي جنبك". ظلّت هذه الرؤية ملتبسة عليها لغاية الآن، عيناها تقولان لها إنها حدثت فعلاً، وإن هذه المرأة الجليلة، السيدة زينب، ظهرت عليها في ليلها المرتاب، في حين يهزأ عقلها قائلاً، "هيدا كان منام".

كانت "تاتا الحاجة" تقصّ على نورهان، كلما زارتها، قصص الأئمة وأهل البيت، مقابل ما كان أبوها يخبرها من قصص خيالية خالدة. لطالما شعرت نورهان باطمئنان كبير إلى جانب جدتها الحاجة. كان الروتين اليومي المتبع بدقة في بيتها، يمدها بشعورٍ بالاستقرار والأمان، أضف إلى ذلك فرحة الجلوس في المطبخ الفسيح إلى جانبها وهي تعدّ الطعام وأصناف الحلويات الشهية التي تعلمت نورهان تحضيرها مع الوقت وطوّرت عندها ذائقةً رفيعة في المأكل. كذلك متعة الاهتمام معها بالجنينة التي زرعت في نفسها بذور الشغف بالنباتات. تذكرت الياسمينة التي جعلتها جدتها تزرعها

ودعتها نوّار، وشجرة الاكيدنية التي زرعها نوّار ودعاها نورا. "بعدها عايشة شجرة نوّار... هيدي ريحتها اللي ستقبلتني عند وصولي"، صمّمت أن تذهب وتكشف عليها ما إن تسنح لها الفرصة. "بركي بلاقيه مخبى فيها"، قالت لنفسها وهي تشعر أن الطفلة استيقظت في داخلها.

لم يكن هذا الشعور مماثلاً في بيت تاتا نهلة حيث كان هناك الكثير من الصخب. عالم يخص الكبار ويحفل بالسهرات الضاجة التي كانت هي ونوّار تُبعدان عنه إلى غرفهما دون حكايات. كانت تستغرب أن أباها يفضل صحبة نهلة على صحبة أمه. في المقابل، كانت أمّها تفرح كثيراً عند زيارة تاتا الحاجة. وكما هي ونوّار، كانت أمها أيضا مبعدة عن هذه الأجواء، فقليلاً ما رأتها تشاركهم لياليهم الرنانة: ربما نسوها مذ كانت طفلة خلف الباب، فكرت نورهان، أو لعلها بقيت طفلة عاقلة تفضل النوم على معاقرة السهر مع الكبار.

همست نورهان كلمات قليلة في أذن جدتها التي هزت برأسها برضى. لم تمانع أن تشاركها حفيدتها تلاوة السور المستحبة قبل دفن أبيها، ولم تعتبر أن ارتكابها خطأً ما في قراءتها سيكون إثماً. إنها تعلم أن حفيدتها لم تقرأ في القرآن من قبل، كما لم تتوجه إلى الله بدعاء، لكن أم منصور لم تكن قاسية في مقاربة الإله.

تقرأ نورهان سورة تحاول أن تركز على معانيها، فتشعر كأنها تردّد Mantra تساعدها على تأمل ما تعيشه الآن. تجعل السّور تكرّ أمام عينيها دون الوقوف عليها، كما تفعل عندما تستعرض الصور التي تمرّ على بالها، عندما تتأمل. تحاول ألا تدع شيئاً يستوقفها، التشنج،

الحزن، الحيرة، الالتباس، الصندوق الخشبي أمامها، وجود الآخرين، حركاتهم. لكن نفساً ثقيلاً جعلها تلتفت إلى الوراء، وهي تمرر القرآن لجدتها بعد تلاوة سورة منه. إنها "تاتا نهلة" وقد غفت أثناء جلوسها على كنبة الصالون الكبير المجاور للصالة المسجى فيها منصور. نديم غارق في أفكاره بجانبها. ميساء تتوجه نحوها لتشعرها بمساندتها لها، وواكيم لا يهدأ، يذرع خطاه في داخل البيت وخارجه، ناجي وسماح يضعان اللمسات الأخيرة على ترتيبات واجبات العزاء.

لم تمض دقائق قليلة حتى سمعت دعسات "تاتا نهلة"، بدلاً من أنفاسها النائمة. صحت كأنها لم تكن غارقة لتوها في النوم، وتوجهت إلى الصالة لتطمئن على جثمان صهرها. نقّلت نظراتها بين الساهرين عليه، ثم رسمت إشارة الصليب وهي تستدير لتعود وترتاح من عناء يومين طويلين.

كانت نهلة قد توافقت مع عائلة منصور، عبر ابنتها دلال، على تحنيط منصور موقّتاً لتبقى هيأته على أفضل حال حين تراه ابنته وأمه قبل أن يوارى الثرى. كانت هديتها الأخيرة له. لا يجوز أن تعبث ريشة الموت العشوائية بملامح منصور فتعلق له في الذاكرة صورة شوهاء. "بس تبطل مديرة بتصير ناظرة"، فكرت نورهان وهي تراقب حركة جدتها نهلة.

عندما توفي نوّار أرسلها أبوها إلى هنا... نعم، لم تبق في البيت. رمقت أمها فوجدتها تمدّ يدها إلى صدرها لتتلمّس القلادة التي لا تفارقه. "قعدت ماما جنب تابوته. حبيبي نوّار، أنا افتكرت انك تخبيت، انك كنت عم تلعب معي غميضة لمن تأخرت وما بينت...

لمن رجعت ع بيروت وما لقيتك بالبيت، فتحت كل الخزانات... فتشت عليك تحت كل التخوت... وبالبراد وبفرن الغاز... لمن ما لقيتك، قلت أكيد بقيت مع دوموازيل ليلى ورحت معها ع البيت... خفت تكون بتحبها أكتر مني. خفت تبقى معها...".

شعرت نورهان كأنّ اثنتين وعشرين سنة لم تمض مذ فارقها نوّار. شعرت بالغضب إذ لم يدعوها تشارك في مأتمه. لا شك في أنّ قرار إبعادها عن البيت خلال عزاء نوّار كان لأبيها. لا تذكر أنه كان لأمها يوماً كلمة نافذة بما يتعلق بها، أو بأي شيءٍ آخر.

حلّ سكون مفاجئ أسكت الغضب حين هدأت هسهسة سيموفنية صراصير الليل، وعادت الوطاويط إلى أوكارها، وخمدت ريح المد والجزر. شعرت نورهان بهواء الصباح رطباً لزجاً. تنبهت أن ليلاً بأكمله قد مرّ ولم تتعب خلاله "تاتا نزهة" من تلاوة الأدعية وسور من القرآن على روح فقيدهم المسجّى أمامهم. ألقت برأسها على كتف جدتها المتسمّرة أمام تابوت ابنها، كما كانت تفعل عندما كانت تاتا نزهة تجلسها على إحدى ركبتيها ونوّار على الأخرى. أمسكت دلال بيد ابنتها كتعويض متأخر عن أمومة منقوصة. من خلف كتف جدتها، رأت نورهان تاتا نهلة تبتعد عند الباب محاولةً السيطرة على اصطكاك أسنانها. "زعلانة عليه أكتر من إمي... بس أنا مش عارفة شو هي هالمشاعر اللي عم عيشها... أو مش مصدقة، ليش لهالدرجة مضيعة البوصلة؟".

"ما تقلدي الحزن ولا تقلدي الفرح... بتضيعي حالك وقيمة مشاعرك، وما بتعودي تعرفي شو بدك وشو ما بدك"، كما كان

يدعوها أبوها أن تفعل في بعض المناسبات. "هلق شو كنت بتقللي لو انك جنبي بابا". تلفتت نورهان للحظات كأنها تريد التأكد من أن هذه الاصوات والتساؤلات لا تصدر عن طفلة لا تقدر أن تراها وقد غمرها عالم الكبار هذا الذي يحيط بها.

مع اقتراب الصباح من تابوت أبيها، معلناً دنو ساعة الاستحقاق، وعلى وقع "الله أكبر" التي أطلقها الرجال الذين أتوا لتشييع منصور، أطبقت أم منصور القرآن وقبلته ومسحت جبينَها عليه ثلاث مرات، ثم وجهته بيدين مرتجفتين نحو حفيدتها التي فعلت مثلها وهي تعي تماماً أنها إنما تقوم بذلك إرضاءً لجدتها، علّ قلبها يبرد قليلاً وهي ترى أنّ ابنة منصور تخشع لله فيغفر له ذنوبه.

"كيف غابت عني هيدي الشامية تحت شفته التحتانية؟"، دست نورهان يدها على وجنتي أبيها الباردتين، كان يبدو حيّاً ضغطت بيدها على قلبه، إنه فعلاً ميت. تفلتت منها زفرة تنبه لها جميع من في الغرفة. شعرت بالبرد الذي قتل بائعة الكبريت وحضرت كلّ حكايات اندرسون والأخوة غريم التي قصّها عليها والدها، عن موت الأب، أو الأم، أو الأطفال، وبقيت قصة مختبئة في غياهب ذاكرتها لم يخبرها إياها، ترتفع كزوبعة وسط البحر وتتلاشى. التقت عيناها بعيني أمها، فرأت فيهما سكينة استفزّتها وأقلقتها. وجّهت إليها سؤالاً صامتاً، فتذكرت دلال قلادتها ومدّت يدها إليها تتفقدها.

علا الصوت مجدداً في الدار الكبيرة: الله أكبر... ألله أكبر. تأهب الجميع لإفساح المجال أمام المشيعين الذين سينقلون تابوت منصور إلى الجبّانة المقابلة للبحر، حيث المقابر المخصصة لآل سلمان.

٥

"هيدا سعيد... هو بعينه"، قالت نورهان وهي ترى من بين المشيعين ذلك الوجه الطفولي الآتي من زمان بعيد ولم تغيّر السنون ملامحه. البريق في عينيه السوداوين المستديرتين لم يخفت، شعره الأسود الفحميّ الأجعد ما زال يغطي جبينه. كما عرفته عرفها. تبادلا ابتسامة، ولم يمنع العرف الاجتماعي نورهان من شقّ صفوف المشيّعين، على مرأى من جدّتيها وعمتيها المستغربات، والتوجه إلى سعيد واحتضانه، حيث لم تتمالك دموعها التي انهمرت لأول مرة مذ سمعت بخبر موت أبيها، على كتفيه فأحرقت قلبه.

كان سعيد، إبن ناطور البستان، فتيل طفولتها ونوّار وشعلتهما. معه، كانت تتسع المساحات ويحلو الشغب. كان مدرسة للمغامرات، المعلم والمنقذ، الساحر والعاشق الجميل. أحبّها بسرّه وداعب حبه المكتوم قلبها الطري. ما زال التمثال القديم الذي أخذته مع الأغراض القليلة إلى باريس يزيّن غرفتها، التمثال الفخاري الذي عثر عليه سعيد بعدما غاص طويلاً في البحر، ورجع به فخوراً ليقدّمه لها هدية. سعيد الذي يكبرها بثلاث سنوات، غجريّ البحر، تربّى فيه وخبر أسراره

مبكراً. كان بارعاً في السباحة والغوص وفي التقاط السمك حياً. كان، ما إن ينجح في التقاط سمكة لإظهار براعته أمام نورهان، حتى يعيدها إلى المياه كي لا تبكي. تتذكر تعابير وجهه عندما بكت حين أحضر لها فراشات اصطادها وألصقها على خشبة ظناً منه أن هدية مماثلة ستفرحها. اعتذر كثيراً وبكى معها كي تغفر له، ففعلت. لكنّ القصة كانت مختلفة مع قنديل البحر التي كانت نورهان لا تمانع سعيد في التقاطه، اذ كانت تعتبره وحشاً حارقاً. على وقع صرخات الدهشة والإعجاب التي كانت تطلقها هي ونوّار، كان سعيد يمسك الوحش من رأسه، متوجّهاً به إلى الشاطئ، يرميه على الرمال، ويأخذ ثلاثتهم بالدوران حوله، كما يفعل الهنود الحمر حول النار على أنغام أغنية سعيد: "موت... موت... يا مقروص، يا ابن المنيوك". كانت الأغنية تثير ضحكاتها وحفيظتها ونوّار، فهما لم يسمعا مثلها إلّا من سعيد، يتكتمان عليه خوفاً من أن يؤنبه أحدٌ من الأهل، أو يعاقبه، أو يمنعهما من معاشرته، كما تكتما على تدريب سعيد لهما على سرقة السجائر من بيت "تاتا نزهة" لكي يدخنها بشغف، رغم أنه لم يفلح تعليم نورهان التدخين إذ أصيبت بدوار وكرهته، لكنها بقيت تسرق السجائر لتفرحه.

"لو بقي نوّار هون، كان سعيد خباه من الموت بشي خابية من خوابي الزيت بغرفة مونة التاتا"، قالت نورهان الطفلة، قبل أن يُعيدها صوت صلوات المشيّعين وجلبتهم وهم يحملون التابوت، من على شاطئ طفولتها إلى العزاء مجدداً. تنبهت إلى أنها لا تزال تشدّ على يد جدتها المرتجفة التي كانت تلَوّح بيدها الثانية مودّعة ابنها.

هل سيفلت أبوها في آخر لحظة من حفّار القبور، يطلق ضحكته

المزلزلة وعنان رجليه، ويذهب كما عادته للمشي صباحاً، ثم يرجع ليحملها عالياً ويردّد قوله لها: "ما تخافي من الموت! ما دامك هون يعني الموت مش موجود"، كما أجابها عندما سألته أول مرة عن الموت؟ كان ذلك قبل أن يأخذ الموت نوّار. لمحت نورهان سعيد يحمل التابوت على كتفه، فشعرت كأنه وحده من يحمله. كان الأطول بين الرجال الخمسة الآخرين الذين رفعوه، وبالطبع الأقوى، على الأقل في نظر نورهان. لو نوّار موجود، كان بطول سعيد هلق وكان حمل التابوت معه... لو سعيد حمل تابوت نوّار... "نوّار... نوّار!"، سمعها الجميع تصرخ مع مغادرة التابوت البيت. أفلتت الطفلة في داخل نورهان نفسها على غاربها، باتت حرّة لا تقوى نورهان على إسكاتها... "لاقي اللذة، المتعة بكل شي بتعمليه... تجنبي الألم"، هذا ما كان والدها يكرره على مسمعها. "كأنك نومتني مغناطيسياً بابا، ليصحّيني موتك بعد كل هيدي السنين على وجع كنت أنا منوّمته مغناطيسياً بمتعتي بالجنينة وشغلي... منوّمته يمكن لأقدر استمر".

مذ صرخت هي باسم نوّار، لم تنقطع شهقاتُ أمّها، كأنها تطلق العنان لألم ابنتها وهي تشهق عن نفسها ونيابة عنها. كانت عمتاها تحيطان بأمها محاولة لتهدئتها، معتقدتين أنها فقدت السيطرة على نفسها مع مغادرة جثمان زوجها البيت إلى الأبد. أما "تاتا نزهة"، فقد أفلتت يدها من يد حفيدتها لتحتضن كنّتها بينما كانت تهمس في أذنها مغمضة عينيها.

لطالما جمعت أمها بجدتها علاقة ودٍّ واحترام، غير أن علاقتهما توطدت وأصبحت حميمة بعد موت نوار، رغم أن جدتها كانت قد

عارضت في البدء زواج ابنها منها. "صارت أمي تجي من دون بابا لتزور التاتا بعد وفاة نوّار، وكانت تصحبني معها"... كانتا تقضيان وقتاً طويلاً وحدهما تتحدثان بصوت خافت... "ما كنت اسمع كلامن، بس كنت شوفهن عم يبكوا واهرب".

بعد تشييع منصور إلى مثواه الأخير، ألهى توافد جماعات المعزّين نورهان عن غياب سعيد وعن ذكريات طفولتها وإياه ونوّار. كثيرون احتفوا بملقاها، منهم من عرفتهم ومنهم من لم تتذكرهم. يضمونها موجهين كلمات تعزية وجيزة، لتتهافت من بعدها أسئلتهم عن مآلها. كانت تردّ بكلمات موجزة أو بهزّ رأسها مع ابتسامة طفيفة. "العزاء متل كرنفال بالأسود والأبيض، صوت قارئ العزاء يحلّ محل الموسيقى، والقهوة محل الشراب، مع سفرة أكل عارمة وإنما مجانية".

اكتمل النقل بالزعرور مع دخول امرأة مسنة ترتدي ثياباً لا تشبه ثياب الآخرين، تلوّح بيديها بصورة منصور شاباً، وتندبه بصوت ما زال الشجى يتعلق بأهدابه. زغاريدها نائحة حزينة وقد بدت كأنها ترقص وتغني. إنها بلاجة، حاضنة منصور في طفولته. بقيت تلازم العائلة إلى حين غادر المنزل. لم ترها نورهان من قبل، لكنها تذكر أن أباها كان يسأل جدتها عنها، كلما أتوا للزيارة، وكان يترك لها مبلغاً من المال.

"لولاه هالشهم ولولا خيرك يا حاجة، لكانت عوت فيي غراب البين... شو صارلو سيد الشباب؟ يا ريتها كانت لإلي هالموتة..."، كانت بلاجة تقول وهي تهزّ رأسها بلوعة، عاصرةً عينيها فلا يبقى منهما سوى كتلة من التجاعيد تشلشل ماءً، "يا حَينتَك يا أحلى شخصية... يا آدمي.. يا بارّ... يا حنون".

اتجهت نادية أخت منصور، بناءً على إيماءة من عين "تاتا نزهة"، واحتضنت بلاجة بمحبة وهي تهمس في أذنها، ثم قدمت لها مقعداً لتجلس عليه، فركنت بلاجة راضخةً دون أن ينضب شلال دموعها. لقد تمرست عمتا نورهان بفهم ما تريده أمهما بنظرة منها أو بإشارة، فتاتا نزهة تصلي وتعمل كثيراً، وتعبّر بإيجاز واضح، غالباً ما يكون عبارة عن قصة، مثل شائع، أو حتى أغنية، تقوم بمهمة إيصال ما تريد قوله. بقليل من الكلام، تدير كل شاردة وواردة في بيتها الذي قلما غادرته، وخصوصاً بعد وفاة زوجها.

لم تكفّ نورهان عن تأمل بلاجة منذ أن دخلت. أعجبها أداؤها المسرحي الحزين، كما أمدها برغبة في الضحك. شعرت بصلة معها وبرغبة في محادثتها والتعرف إليها. إلى جانب تاتا نزهة، كانت هي الأكثر التصاقاً بأبيها منذ طفولته. جاءت للعمل في بيت جدّ نورهان، لتعيل ابنها الوحيد بعد هجران زوجها لها واختفائه. تربى ابنها مع منصور. لكنه، لمسألة أخلاقية، طُرد في ما بعد من بيت العائلة التي ساعدته، رغم ذلك، في الحصول على هجرة إلى السويد. بقيت بلاجة معهم وبقي المسلك الذي تسبّب بطرد ابنها أمراً لا يتم تناوله على موائد الحديث.

بعدما حلّ ليلٌ أوّل، بعد مغادرة إبن العائلة الوحيد البيت إلى الأبد، وليلتان متتابعتان من السهر، خلت الدارة من المعزّين. استبقت أم منصور بلاجة معهم لتوفّر عليها عناء الذهاب والإياب طوال أيام العزاء الثلاثة، من وإلى ضيعتها البعيدة المتاخمة للحدود. كانوا جميعاً منهكين، بعيون منتفخة ووجوه يظللها السواد. "كأنها حاملة تابوته ع ضهرها ومتجهة

صوب الأرض لتنزل قبله تحت التراب"، فكّرت نورهان ونظرها يتبع جدتها المتجهة بتثاقل، بعد العشاء، نحو غرفتها لإقامة الصلاة.

خرجت نورهان بصحبة ميساء، كما عاهدت نفسها، لتستلقي تحت الياسمينة التي كان لهاث أنفاسها يصل إلى داخل الدار المشرعة نوافذه وأبوابه. لم تخطئ طريقها إلى شجرة نوّار المغروسة بجانب البركة الصغيرة التي ترش ماءها عليها كلما أديرت الصنبورة. هدوء الليل المشع بقمر أخذ في الضمور بعد اكتماله ليلة الأمس، لا يخرقة سوى تداعي لجّة البحر الهائج وأصوات تصل وشوشاتٍ من داخل بيت الناطور.

جلست نورهان وصديقتها، يداً بيد، صامتتين، على المقعد الحجري الصغير، تحت ياسمينة نوّار. كانتا تدوران حول الكلام كمن يجلس أمام مائدة حافلة بالأطباق المفضّلة لديه فيحتار بأيّ منها يبدأ، فالحزن كما الفرح الكبير، كما التشوش، يُقيل الكلمات. لكن الذكريات، كما المقبلات الخفيفة، عندما يفلت جماحها بين صديقتي طفولة، لا يُصمتها قادرٌ قدير.

"بعدو سعيد متل حيوان بحري"، همست ميساء كأنها لا تريد أن يسمعها سعيد في بيته الذي يبعد أمتاراً قليلة عن الياسمينة. "بعدك بتعملي اللي براسك نورا... شفت كيف اطلّعت عليك طنط نهلة انت وعم تعبطيه؟... أنا كمان كان عبالي إعمل متلك، بس خجلت".

ابتسمت نورهان وهي تردّ على صديقتها، "كان عبالي ساعده بحمل التابوت كمان... لأكّدلك انو مش دايماً بعمل اللي براسي".

كثيرة ومكتنزة هي ذكريات طفولة ميساء مع نورهان، في هذا البيت الذي كانت تأتيه بصحبة العائلة. وما لم تعشه فيه، كانت نورهان تخبرها

اياه عند لقائهما في بيروت. كانت المغامرات مع سعيد ملح أحاديثهما وبهارها، كان الإكزوتيك في حياتهما، وما كان يفعله لم يكن أحدٌ غيره من أصحاب المدرسة أو الأقارب يجرؤ على فعله.

"عبالي أعرف إذا تغير أو بعدو مجنون... جامح؟"، قالت ميساء.

"بتذكري لمن صرحت له إني بحبه، قللي عنده حورية بحر واحدة اسمها نورا... هههههههه"، ضحكت وهي تغطي فمها بيدها لتمنع ارتجاجات ضحكتها من إيقاظ صمت الليل.

مذ غادرت إلى فرنسا، لم تحاول نورهان أن تعرف أيّاً من أخبار سعيد. سألت عنه عندما جاءت لتودّع جدتها ولم يكن موجوداً. وضعته هو أيضاً في كيس الماضي الذي أحكمت إغلاقه قبل أن ترحل. فعلت كمن ينتسب إلى "مذهب عقائدي" حيث يتم غسل دماغه من ماض يشعر تجاهه بتعلّق وبعقدة ذنب، فيبني بكل غطرسة حاضراً يؤسس لمستقبل منفصم تماماً عن ذلك الماضي، دون المرور بالمصالحة معه. "هههههههه"، أطلقت نورهان ضحكتها دون أن تكتم فاها على أفكار تكرّ في رأسها، فبدت تجاوباً رجعياً مع قهقهات صديقتها المكتومة.

"يا قلب عمتك... ستك مش قادرة تنام وانت برّا"، نادت نادية بعد مرور دقائق على إطلاق نورهان قهقهتها. سكبت كلماتها كفقاقيع صابون وهي تتجه كشبح نحو الصديقتين في عزلتهما تحت الياسمينة.

تأهبت نورهان ومعها ميساء، ومشتا نحو البيت، ولم تنفّذ نورهان ما كان يدور ببالها بأن تذهب إلى البحر، تسبح عارية، لتغسل عنها هذين اليومين الطويلين.

٦

نهضت نورهان وكانت لا تزال بين الصحو والنوم، كما كانت حالها طوال الليل. عندما دخلت الصالة الكبيرة حيث يقام العزاء، تهيأ لها أن أسراباً من الغربان قد حطت فيها. لقد امتلأ المكان بالمعزين باكراً، وبلاجة ارتدت اليوم الأسود كسائر الحاضرين، فغاب الطاووس الوحيد في بستانٍ حلّ به اليباب. اختفت من يديها صورة منصور التي كانت تتأبطها، وبهت الكرنفال. "لا بد وأن تاتا نزهة قد ألبستها فستانها، كأنّ الألوان تشتّت الحزن... في حفل موسيقي كلاسيكي، يرتدون الأسود كي يركّز الناس على الموسيقى، لا على الأزياء... "حتى الصبايا والشباب الذين استُخدموا لتقديم القهوة، يذكّرون بملابسهم السوداء بفرقة موسيليني الفاشية "القمصان السود"... أجل، الموت هو الفاشي".

راودت نورهان فكرة بأن تنادي بلاجة وتطلب منها أن تخلع هذا الأسود وتعود إلى طياتها الثلاث من اللباس بألف لون ولون. أرادت أن تقول لها، ارقصي يا بلاجة الموت وارسميه بخطواتك. أطردي رائحة غباره وضبابه الكثيف بأغانيك الحزينة، أخبري

قصته بذراعيك. لا تحشريه تحت ثوبك الأسود الفضفاض الذي بعثر الانسجام فيك! عودي طاووسة وأنشري النور. نحتاج إلى ضوئك لنفجّر زجاجات المشاعر المكبوتة ونجعل حُممها تفيض بذاكرة الموت. دعيها، يا بلاجة، تتحرر كما الرغوة تتدفق من أفواه قناني الشمبانيا المضغوطة. لا تجعليهم، يا بلاجة، يمحون عاداتك وطقوسك، لا تسمحي لهم بإحباط وجودك.

دخل صفٌّ من الصبايا تعرفت نورهان في وجوههن إلى بنات سماح وناجي. فوجٌ آخر ينبثق من ركام طفولتها، تركت مقعدها بين جدتها وأمها، لتجلس برفقته. سُرّت لأنها وجدت أنه لم يعد هناك كراسٍ شاغرة في الصالة الكبيرة المحتشدة بالمعزين، فخرجت معهم إلى الباحة الملاصقة للحديقة حيث صُفّ المزيد من المقاعد. آه... إنها تتنفس أفضل في الخارج.

الكعوب مرتفعة ولامعة في أسفل السيقان، أناقة مبالغ فيها، وتعابير متكلفة على الوجوه، جعلت نورهان تشعر بغربة بين قريباتها. "غيبة طويلة"، قالت إحداهنّ كاسرة صمت دقائق لاذت به نورهان. "كتير زعلنا على عمو منصور، مع انو كنا نشوفو قليل، بس بابا دايماً بيحكينا عنه"، قالت أخرى علّها تجذب نورهان إلى الكلام. اكتفت نورهان بهزّ رأسها مع ابتسامة فاترة، تجاوباً مع حديث جمانة ابنة ناجي. "كنا نسأل عنك طنط أم منصور كتير... كان دايماً عندها حسرة ع غيابك". "أنا كمان متل بيي ما كنت إسأل عنكم"، كادت نورهان أن تجيب.

تاتا نهلة هنا وهناك. وجدتها وهي تدخل الصالة تتوجه نحو تاتا

نزهة وفي يدها صحن طعام. تمشي بزهو وتألق، تماماً مثل غرايس كيلي. "Le savoir faire"! إنها بارعة بالأفراح وبالأحزان، بالعمل، بالسّهر وبالمرح، كما كان أبوها تماماً، كأنها هي التي ولدته وليس تاتا نزهة. جلست تاتا نهلة إلى جانب تاتا نزهة وشرعت بالحديث معها، بعدما ناولتها صحن الطعام.

لم يكن توافد الناس بعد الظهر أقلّ مما كان عليه خلال فترة الصباح. تفاقم شعور نورهان بالغربة، كأنّ موت نوّار قطع حبل الصرّة الذي كان يربطها بمحيطها. شعرت من جديد بالرغبة في الجلوس في ظلّ الياسمينة، في السباحة إلى ما لا نهاية، في عناق نفسها التي تراها تتفتت أجزاء أمامها، كأن السلام الذي كانت تشعر به وهي وحيدة في بيتها، لم يكن سوى هيكل مصدّع انهار في مواجهته الأولى مع الرياح. ثمة ما يعصف في داخلها، وماً يكاد يشقّ طريقه إلى الخروج من حلقها، حتى يعود ويختبئ.

ولج الليل إلى داخل البيت وانصرف المعزّون. الجميع منهك. وبعد تبادل أحاديث روتينية، اتجه كلٌ إلى غرفته للراحة دون عشاء. قررت نورهان الانتظار والتأكد من أنّ الجميع أخلد للنوم كي تخرج إلى الحديقة، وبالذات تاتا نزهة التي ستنصرف، إلى حين، إلى الصلاة والدعاء، فاستلقت على سريرها علّها تغفو قليلاً. عبثاً حاولت.

صمتت الدار ولم يعد يصل إلى مسمعها سوى أصوات صراصير الليل التي تسكن الأشجار المحيطة بالمنزل، خرجت على رؤوس أصابعها ونزلت على هدى السلم المؤدي من الطابق الأول المخصص لغرف النوم، إلى الجنينة. باغتها عواء الكلبة، فتسمّرت في مكانها.

لمحت بين الأشجار طيفاً صدر عنه "هششششش"، محاولة لإسكات عواء الكلبة. إنه سعيد! شعرت بخفّة وانشراح. اقتربت منه فلم يتحرك من مكانه كأنه تجمّد من وقع المفاجأة. "مرحبا مادموازيل نورهان"، قال لها بارتباك. أطلقت ضحكة وقالت: "ولووو سعيد شو مداموازيل هيدي، شو نسيتني؟".

لم تصدق نورهان عينيها وهي تراه يقفز كما كان يفعل طفلاً عندما يسمع منها كلاماً يسّره. ما زال سعيد طفلاً يقفز ويقفز معه شعره الأسود الجعد. امتلأ صدرها بالأوكسيجين وتنفّست عميقاً وبانشراح. رؤية سعيد كشحت كلّ الإرهاق وهدأت كلّ العواصف. دعته ليجلس معها تحت الياسمينة. فعل وهو يبدو مذهولاً، مسحوراً.

لم يتحيّر الكلام، انفلت على سجيته أسئلة واطمئنان. جعلته يتحدث عن نفسه. أخبرها أنه تزوج وفقد امرأته وطفلته عند الولادة، نتيجة زلال بالحمْل تسبّب باشتراكات عند المخاض. ثم ضحك وتجرأ أن يقول بشيء من الخجل، إنه خبّأ، مذ كان صغيراً، قطعة من ثيابها لكي يلبسها لابنته عندما يكبر وينجب. كانت جدة نورهان ترسل لأولاد الناطور ملابس نورهان ونوّار عند الاستغناء عنها. "ماتت البنت قبل ما تولد، فستانك بعده عندي. تزوجت البحر وتبنيت سمكاته وأصدافه. هيدا هو عالمي وحياتي، ما بدي أكتر"، أضاف بعد برهة صمت مكّنته من إرجاع دموعه إلى محاجرها.

"ليش هلقد في موت مبكر بهالبيت... كأن في لعنة؟"، قالت نورهان غاضبة، بعد دقائق من الوجوم. دسّ سعيد يده في جيب بنطاله وأخرج علبة سجائر، ووجّه بخجل لفافة منها نحوها. نظرت

نورهان إليه بحنان، قبل أن تمدّ يدها، مبعدة بتردّد بطيء علبة التبغ. ابتسما لذكرى السجائر المسروقة، وانسدلت جفونها على عينيها المبتسمتين وقد اغرورقتا بالدموع.

كانوا ثالوثاً فرحاً أصغرهم نوّار، فكيف يمكن تجنب استحضاره، وخصوصاً أن الموت ما زال طازجاً يلف المكان، تملأ سيرته الأفواه وتصمّغ القلوب. شعر سعيد بوجل. لم يكن يريد نكء الجراح. قبل أن يفتح فاه، فكر ملياً. حمل سيجارته إلى فمه وأشعلها، عبّ دخانها بنهم وحبسه في صدره ثواني عديدة، قبل أن ينفث بعضاً منه إلى الخارج، وهو يدير رأسه مغمض العينين ليرسل الدخان بعيداً عنها.

"بشتاق كتير لنوّار"، قال وهو مطرق الرأس. أخبرها كم كانت صدمته كبيرة عندما علم بوفاته. حاول يومها الذهاب مشياً على الأقدام إلى بيروت، ولمّا تاه، وجدته شاحنة وأرجعته إلى أهله. في اليوم التالي، وحين أرسله أبوه لتسليم بيض الفطور لتاتا نزهة، تفاجأ برؤية نورهان في المطبخ. اختبأت تحت الطاولة ما إن رأته. من حينها، لم يرها. رجع إلى البيت وهو يبكي. أصبح يرى نوّار في حلمه ويراها مختبئة تحت الطاولة.

تذكرت نورهان أنها رفضت الخروج للّعب مع أولاد الناطور، رغم إصرار عمّتيها. أمضت وقتها ترسم وترسم وتمزق الورق وترميه على الأرض، وهي جالسة إلى طاولة المطبخ، بينما تقوم عمتاها بأعمالهما الروتينية، بغياب جدتها الذي فاقم وحشتها. لكنها لا تذكر بتاتاً أنها اختبأت عندما رأت سعيد ذلك اليوم البعيد. تذكر تفاصيل كثيرة بدقة، فكيف تبخّرت تلك الذكرى من بالها؟ تهيأ لها أنها لم

تفقد فقط الكلام عند موت نوّار، بل ربما النظر أيضاً.

نظرت إليه عبر غشاوة التصقت برؤيتها، كان قد وضع سيجارة أخرى في فمه وأحكم عليها بشفتيه وهو يشعلها ممسكاً بالقداحة بيديه الاثنتين. بدا كسنجاب ينهش بلوطاً، وهو يتلفت متيقظاً. "كان نوّار اسم الله عليه، يشقّ الأرض ويطلع منها، كله حيوية... كان متل جنينة بالربيع..."، قال لها بعدما رمى السيجارة التي بالكاد أشعلها، وأطفأها بكعب خفه البلاستيكي، حتى انطحنت على الأرض. أخبرها أن نوّار ومرضه أقلقاه جداً، خاف كثيراً عندما علم بصعوبة وضعه الصحيّ وهو يستمع لتاتا نزهة تخبر أباه. تماهى معه وشعر بألمه، فهو أيضاً توعك لمدة طويلة عندما كان في السادسة، ولكنه خرج معافى.

"شو قلت سعيد؟ خبرني شو صار لك؟ ما بتذكر شفتك مرة مريض"، سألته نورهان وهي تفتح عينيها وتدفع بكل جسدها نحوه، فابتسم. إنه يكبرها بثلاث سنوات، وفي حينها لم يلعبا كثيراً معاً.

نقّل سعيد نظراته في كلّ الاتجاهات. رغب في أن يلتصق بنورهان، علّ التصاقه بها ينقل إليها، من دون كلام، ما يردّ على استفساراتها الملحّة عن مرضه. كان إصغاؤها الراجي الوادع يبعث في نفسه طمأنينة، مثلما كان يفعل وقع ارتطام الموج الخفيف الذي كان يتناهى إلى مسمعه، في سكون الليل وظلمته المضاءة بنجوم كثيرة.

نظرت إليه لبرهة، ثم رفعت رأسها نحو السماء. سألها ضاحكاً ألا تحصي النجوم كي لا يكون نصيبها من عددها دمامل تنبثق في

وجهها. ضحكت بدورها إذ تذكّرت أنه نبهها وهي بعد طفلة ألا تفعل ذلك، وهي من يومها لم تحصِ النجوم. لامست كتفه ملاطفة، فأخذ نفساً عميقاً وقال وابتسامته تغيب عن شفتيه:

عندما مرضت وطفحت دمامل كثيرة على وجهي، اعتقدت أن ذلك كان عقاباً لي لأنني لم أصغ إلى أمي عندما نهتني عن عدّ النجوم. كنت أشعر أنّ كل ما كان يحلّ بي، كان قصاصاً لي. ظننت أنّ المرض هو الله. وعندما خفت أن أموت، تهيأ لي أن الله هو الموت. كنت ألحّ على الاغتسال، وأشعر أنني متسخ دوماً. أتقيأ كثيراً وأبول في فراشي، وأمي الحزينة إلى جانبي تسعفني ولا تنام الليالي. توقفت عن الذهاب إلى المدرسة أثناء مرضي، وامتنعت عدما شفيت عن مزاولة دراستي لحين. كنت خجلاً من رفاقي، من كل العالم، حتى من أمي.

أصيبت نورهان بدوار خفيف وهي تنظر باستغراب إلى سعيد وهو مسترسل في كلامه، كأنه يروي قصة من قصص الرعب التي كان يخبرها إياها عندما كانا صغيرين، إذ كان يلوح لها في ملامحه وجه نوّار المريض الشاكي ، قبل أن يلتفت إليها ويقول:

لا تتصوّري كم ساعدتني أنت ونوّار، على استرجاع شجاعتي لأن أفعالي وقصصي كانت تضحككما وتسليكما، كم شعرت بالفخر لأن أولاد الـ"Patron"، يعاشرونني، يتوارشون معي، يقلدونني، ويضحكون لكلماتي "الزفرة"، بل حتى يسرقون لي السجائر! "حسيت حالي محبوب... نظيف".

"وحش"، كرّرها ثلاث مرات قبل أن يتنبه إلى أن نورهان كانت تنظر إليه كالمصعوقة. "نعم، المرض وحش"، همست وهي تمدّ

يدها لتشد على يده الراكنة فوق فخذه.

أخذ سعيد يهزّ برأسه وهو ينظر إليها، كمن يتأهّب لقول ما في خاطره، بينما تنظر هي إليه، محركة رأسها ببطء، صعوداً ونزولاً، بعينين، على نعاسهما، مترقبتين تشجعانه على المتابعة، تليّنان رباط أسراره وتدعوانه إلى مشاركتهما إياها كحقّ لهما عليه.

هناك وحوش متخفية بهيأة أشخاص، سمعته يقول بغضب وقد فُكّ رباط لسانه. هؤلاء الأشخاص هم المرض، وهم الموت.

"نعم سعيد"، أجابته من دون أن تفهم ما يقوله تماماً.

"في وحش، نورا، من هالوحوش افترسني، اعتدى عليّ، مرّضني، هدّني... طعم هيدا القهر بعدو لليوم بتمّي، بوجّعلي جسمي"، صاح بنبرة طفولية، فنظرت إليه ورأت في وجهه صور الأطفال المعنفين والمغتصبين الذين استمعت إلى شهاداتهم ضمن تقارير عرضتها شاشات التلفزيون الفرنسية.

"اغتصبوك؟"، سألته مستنكرة، راجية أن يكذّب ظنها، فتدحرجت على وجنة سعيد دمعة أكّدت لها أنها أصابت. ابتسم لها كمن برئ من آلامه، همّت أن تسأله عن الفاعل، لكنها خافت أن يستحضر سؤالها مزيداً من الألم له، فضحايا كثيرون مثله، ينحرفون، أو يقضون حياتهم منعزلين ضالّين، أو يتحولون أنفسهم إلى مغتصبين... لكن سعيد لا يزال هو نفسه، سعيد طفولتها، متماسكاً في كلامه، عالياً في احساسه، متناغم الحركة رغم توتره، رزيناً كما رأته وهو يحمل تابوت أبيها، تنضح الصحة من كيانه، ولو أن ألمه واضح.

ساعدتني أمي كثيراً، تابع يقول، حضنتني بحبها، حمتني،

شجّعتني، تفرّغت لي. تعاملت مع عدوانيتي المستجدّة بتسامح وصبر، حتى أنها لم تؤنبني عندما وجدتني أحاول شنق قطة أو عندما كنت أرمي حجارة ثقيلة على ظهر سلحفاة كي أجعلها تخرج من بيتها. "إنت كمان ساعدتيني نورا، لمن بكيتي لأني تصيدت الفراشات، توقفت كلياً عن أذية الحيوانات، بتتذكري؟".

أذكر، قالت له وقد انفصلت تماماً عن كلماته، إذ راحت تفكّر كيف عساها تطرح عليه السؤال الذي يحرق لسانها: من؟ من هو الوحش الذي فعل بك كل هذا؟ أخبرت أهلك عنه؟ كيف تخلّصت منه؟ هل عوقب؟

استجمعت نورهان شجاعتها، وضعت كفها على ظهره، وقالت لنفسها، الآن! فخرج صوتها خفيضاً: سعيد، هل أعرفه أنا ذلك الوحش؟ رفع سعيد رأسه إليها متفاجئاً، ثم تسمّرت حدقتاه في عينيها، تصلّبتا، تحوّلتا إلى زجاج أغبش، بارد، كأنه لا يراها، ينظر إليها ويرى الوحش ولا يراها هي. شفتاه ترتعشان. سيقول لها. لا، عاد يطبقهما. قل سعيد، قل! من هو الوحش؟ هل أعرفه؟ لمَ لا يقول؟ لا بدّ أنها تعرفه. أجل، تعرفه حتماً، وإلّا فما الذي يمنعه من أن يسمّيه...

"بعدك سهرانة نورهان؟" وصلها صوت تاتا نزهة وسط سكون الليل، واقفة أمام باب الدار. لكن نورهان بقيت صامتة، متعلقة بشفتي سعيد. كرّرت جدتها النداء وبدأت تنزل الدرج المفضي إلى الحديقة. وقف سعيد معلناً رغبته فيالمغادرة، فوقفت نورهان مرغمة، وأسرعت تلاقي جدتها وتقطع عليها الطريق.

"هالسهرات مش إلنا يا تاتا"، بادرتها جدتها، بهدوء صارم، عندما اقتربت منها، أما هي فاكتفت بالبحلقة في عينيها المتوهّجتين، دون أن تضمّها إليها كما من عادتها أن تفعل. شعرت بنظرات جدتها تثقبُ ظهرها وهي تتجه إلى غرفتها، ترددت قليلاً، ثم استدارت ناحيتها. التقت عيونهما لثوانٍ بصمت، وظلّ السؤال الذي أرادت أن توجهه لجدتها معلّقاً على شفتيها، مخلفاً نكهة رجعية مرة وُلدت في حلقها تجاهها.

ما إن أغلقت باب غرفتها حتى دارت الأرض بها، فألقت بنفسها على السرير قبل أن تهوي. شجنة، منهكة من ثقل خبرية اغتصاب سعيد، غفت لحين. لكنّ الكابوس الذي كان يتردّد على طفولتها اقتحمها مجدداً. إنه الكابوس اللعين حيث ترى شخصاً يحمل إبرة عملاقة يوجهها إلى صدر نوّار بهدف قتله، وهي تحاول دون طائل الحراك لإنقاذه.

استفاقت من غفوتها القصيرة، مذعورة. قلبها ينتفض كسمكة أُخرجت من الماء، تماماً كما كانت تستيقظ من الكابوس ذاته، خلال طفولتها. كانت الشمس تسدل، عبر ستائر غرفتها المغلقة، شعاعاً كتوماً.

هرولت إلى الحمام تشطف وجهها. ماء، صابون، رغوة، ثم ماء، فصابون، فرغوة، فماء. لا تتجرأ على النظر إلى المرآة. لمَ انصاعت لأوامر جدتها وتركت سعيد يغادر وحيداً بوجعه، بعدما باح لها بما باح؟ تتابع دون كللٍ شطف وجهها، شطفٌ يكاد عنفه يودي بالشامية فوق فمها المستديرٍ، أو ببشرتها المشمشية، أو على الأقل بالنمش

المرذوذ على أنفها الأقنى ووجنتيها العاليتين. كان عليها أن تستبقيه، أن تستمع إليه أكثر، أن تعرف هوية المجرم الذي انتهكه، أن تمسكه بيده، تطلب منه أن يأخذها إلى بحره، وحتى أن تجعله يفك لها شعرها ليركضا حافيين على الرمال المشبعة بأمواج الليل، ويشيّدا قلاعاً كتلك التي كان نوّار يبنيها، ويسبحا، ويرفعها على كتفيه وتقفز، ويسمعا نوّار يصفق لهما، "ولتفعل تاتا نزهة ما تشاء".

هربت من جديد. سؤالٌ انفلش في الغرفة وأحسّت به يتفتت على جسدها حارقاً، كما تفعل شظايا القنابل العنقودية عند انفجارها. شعرت مجدداً بتلك النكهة المتخلفة التي تسبّب بها تدخل جدتها الذي قطع عليها سهرتها مع سعيد.

سعيد، حبيب البحر، صانع القوارب، صائد الأصداف والأسماك، صديق حوريات البحر وسلاحفه، ماخر الموج بجسده الزئبقي. أنت الذي صبغ ألواناً جديدة على نسيج طفولتنا الحريري، طرّزه بالزهور البرية، وأشبعه بروائح التراب والبهار. سعيد الذي تحدى قناديل البحر اللاسعة، وتكلم مع حيوانات البر والبحر، وأحبته الشمس فأهدته ألوانها. سعيد الجميل، من هذا الوحش الذي تجرأ عليك ولم يلن حين رآك؟

كانت ترتجف، أسنانها تصطك وروحها تصهل عندما ابتعدت عن المرآة وهي تمسك برأسها، وتضغط عليه بكلتا يديها، وقد لاحت لها الإبرة العملاقة وهي مصوّبة نحو صدر نوّار، فيبرق في ذاكرتها أخوها ذابل الوجه، أحمر العيْنين، مكسور الخاطر، يأنف الأكل، معتكفاً عن اللعب، مديراً ظهره لها، كما لم يفعل مرة، ينتفض خائفاً،

أو يختبئ تحت الغطاء باكياً، كلما دخل أبوها برفقة الطبيب لمعاينته، طالبين منها مغادرة الغرفة.

كمن ينظر في بئرٍ فيرى وجهه منعكساً في صورتين متجاورتين على سطح الماء، يبدو الوجه في إحداهما طفلاً، وفي الأخرى فتيّاً، الطفل صامت لا يقوى على الكلام، زُهقت روحه قبل أن تكتمل أسنانه، والشاب يتكلم بشجن عن مشاعر طفل قاصر، عن آلام بلغته باكراً، عن إثم لحقه ولم يرتكبه، وعن غضب خُنق قبل أن ينفجر.

رويداً، رويداً، تلاشى وجها سعيد ونوّار في قاع ماء عينيها، وحلّ مكانهما وحش... فيروس... إبرة عملاقة. "ما كنت هيك... ما كنت هيك"، صرخت داخل غرفتها، مسدلة الستائر بعدما دلفت الشمس عبرها.

لم يقرع أحدٌ بابها، رغم أن الصباح قد تقدم بخطواته في مراح النهار. أخذت تمشي بوجلٍ في الغرفة، فتحت خزانتها ببطء كمن يخاف من غول يختبئ في داخلها. "ما كبرت... بعدني عايشة بحكايات بابا". أين هي ستي زينب كي تطمئنّي أن الوحش لم يؤذ أيضاً نوّار. المرض وحش، المرض وحش.

راودتها رغبة في أن تكون في حديقتها الآن حيث تشعر بالسلام. ما جدوى المجيء إلى عزاء أبيها ولماذا لم تفكر مرتين قبل شراء البطاقة؟ لمَ لم تذهب إلى كلود وتطلب منه جلسة تأمل خاصة بها؟ لمَ لم تجلس على مهل وتحتسي كأساً من النبيذ الأبيض وتستمتع به مع السلمون بالشومر، الذي أحضرته ذلك المساء، قبل مكالمة ميساء، وقبل أن تقفل شقتها وتتوجه إلى المطار؟ حبذا لو ذهبت،

كما كانت مصممة، إلى أربوا، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع غي، وسلمت نفسها للهواء وروائح النبيذ، لكروم العنب وفجور طعم جبن المزارع اللذيذ، ولرذاذ مطر الصيف النرجسي.

تناولت ملابسها السوداء التي علّقتها دون عناية ما إن وصلت وفكت حقيبتها. لا شك في أنهم تركوها تنام لترتاح قبل الالتحاق مجدداً بموكب العزاء في يوم الثالث، بأمرٍ من تاتا نزهة التي علمت بذهابها إلى السرير، قبيل الفجر. حاولت أن تستعيد زمام الأمور، ففكرت أن تخرج من غرفتها لتهرب من هذيانها الذي خرج عن سيطرتها. شعرت أن رجليها لن تقويا على حملها. "تعبت... تعبانة... بدي نام". ألقت بنفسها على السرير، غير عابئة بالوقت. أغمضت عينيها، فضمّها نوم رحيم.

سكت قارئ العزاء، غاصّاً، ما إن رأى شلال شعر ينساب في الغرفة، تتبعه فتاة عارية. تجمّدت تاتا نزهة في مكانها، حاولت تاتا نهلة الوقوف، لكنّ ساقيها خانتاها. اقتربت نورهان منها، وبعنف انتزعت منها مقصّاً ظهر في يدها فجأة، وهي ترمقها، غاضبة، من بين خصلات شعرها المنسدل على وجهها. صرخت بلاجة مطالبةً بثيابها الملوّنة، فاتجهت نورهان إلى الباب، وطارت وحطّت عند الياسمينة حيث وجدت أمها نائمة، محتضنة جذع شجرة. ظهر سعيد فجأة وراح يقفز إلى جانبها. قفزت نورهان، فقفز أعلى منها فوثبت عالياً حتى بلغت السماء حيث ظهر وجه أبيها مبتسماً لها، منتشراً على المدى الأزرق. فتحت فمها لتسأله عن نوّار، لكنه تحول، مثل غيمة، إلى وجهين بجسم ضخم غير واضح المعالم، ثم إلى إناء عملاق

يحتوي سمكاً عجيباً وقنديلَ بحر.

"إصحي نورا... إصحي"، تسلّل صوت ميساء إلى منامها، مع نقرات خفيفة على الباب. "واصلة، دقايق"، أجابت بصوت مخنوق. حرّكت رجليها، بينما بقي الجزء الأعلى من جسدها ثقيلاً، كأنه التصق بسريرها. رفعت يديها عالياً كأنها تنتظر من يساعدها على النهوض. لم يمض وقت طويل حين سمعت صوتاً آخر وراء بابها، "نورهان، بك شي؟ هيدا ثالث أبوك. الناس عم تسأل عنك". "واصلة تاتا، كنت تعبانة كتير"، أجابت جدتها نهلة بصوت متثاقل وهي تهم بمغادرة سريرها.

ربطت شعرها بعناية وارتدت الملابس التي كانت قد وضعتها على جانب السرير. فتحت باب غرفتها وهي تشعر أنها تغادر صومعةً طال مكوثها فيها.

مشت دون أن تنظر حولها، كأنها بذلك تخفي نفسها عن كلّ هذه الجموع. توجهت نحو جدتها نزهة وأمها وجلست تتوسطهما. "كنت كتير تعبانة، ما نمت منيح"، قالت لأمها كمن يمرّن صوته على الكلام. شدّت دلال على يدها بحركة متعاطفة. مالت جدتها نحوها هامسةً: "هلّي ما بيريد يشوف منامات وحشة، ما بينام بين القبور، يا تاتا". نظرت نورهان بزاوية عينيها إلى جدتها، كابحةً رغبة في أن تدفعها بعيداً عنها. هذا الملاك يخفي طحالب لم تشعر بلزوجتها اللاسعة من قبل. عندما وقع نظرها على بلاجة جالسةً في إحدى زوايا الصالون، يدها على خدها، كرّ في مخيلتها الحلم السوريالي الذي رأته صباحاً، مشهداً إثر مشهد. أخذت تراجعه بتأنٍّ، كأنها تحفظ

درساً صعباً لامتحانات نهاية السنة.

كان نوّار يقصّ عليها أحلامه عند كلّ صباح. كان، أحياناً، يكمل الحلم الذي يكون قد انقطع خلال نومه، بتأليف قصة متمّمة له من وحي رغباته وخياله. وكان أبوها، عند سماعه، يشيد بمخيّلته الخصبة، فيعلّق مقهقهاً بزهو: "هذا الشبل من ذاك الأسد". لكن نوّار توقف عن سرد أحلامه عليها عندما مرض. أخذ يستيقظ صارخاً وسط الليل. ربما كان هو أيضاً مثلها، فريسة كوابيس ما. أثارَ استذكارها لكوابيسها غضبها الذي كان مشتعلاً قبل أن تستسلم للرقاد عند الصباح. عادت قصة اغتصاب سعيد تحفر في قلبها.

تلفتت بحركة غير إرادية صوب أمها، ومن ثم صوب جدّتها كأنها تستطلع في وجهيهما جواباً عن الغاشم الذي اعتدى على صديق طفولتها وسط كلّ هذه الأجساد السوداء المحيطة بها والتي تحسر النور عن بصيرتها، شعرت نورهان بالوحشة.

التقت عيناها بعيني تاتا نهلة المصوبتين إليها، كأنها تنبهها بالقول: "إصحي يا تاتا، اصحي". إنها مثل أبيها، ترى ما يدور في الغيب، "إم مقصّ". كادت تقهقه وقد أطلقت على جدتها هذا الاسم، كانتقام رجعيّ منها، هي التي أجبرتها، في يوم بعيد، على قصّ شعرها، طفلةً، رغماً عنها.

جاءت ميساء، انحنت عليها وهمست في أذنها. نهضت نورهان وتبعتها بعدما قالت بصوت منخفض، وهي تتلفت يساراً ويميناً، نحو أمها وجدتها: "برجع بعد شوي".

كان موظف البريد السريع يحمل رزمةً سلمها إيّاها طالباً منها

أن توقّع الإشعار بالاستلام. نظرت إلى عنوان المُرسل، إنه غي من غرينوبل. هزّت برأسها وهي تتناول القلم من يد الساعي. تمهلت قبل أن توقع، كمن يستذكر إمضاءه.

منذ سفرها، لم تتصل به. أرسلت له رسالة هاتفية بعد وصولها تطمئنه، ثم أغلقت هاتفها ونسيته مغلقاً. تعوّدت نورهان أن يرسل لها غي من أيّ مكان يسافر إليه هدايا غير مألوفة، وبطاقات بريدية مع بعض السطور اللطيفة التي يكتبها بطريقته الغناء، عبر البريد السريع، بما فيها جبنة محلية من البلد الذي يكون فيه، أصداف يلمها عن الشاطئ عندما يكون في بلدة ساحلية على البحر. وصل به الأمر إلى أن أرسل لها سلموناً مدخناً لأنه يعرف كم تحبه، لكنها لم تتوقع أن يرسل لها طرداً إلى لبنان وقد أتت لحضور مأتم أبيها. كانت مبادرة لطف ومساندة، كمن يُؤخذ إلى حضنٍ كبير، قبل أن يقع. التفتت نحو ميساء طالبة منها أن تضع لها الطرد في غرفة نومها، فالمدخل المؤدي إلى الدارة، مكان غير لائق للوقوف.

قبل أن تعود إلى صالة العزاء، أرسلت نورهان نظرها إلى عمق الحديقة تبحث عن سعيد الذي لم يغب عن بالها منذ يوم أمس، فلم تعثر عليه. وحين دخلت، وجدت جموع المعزّين تقف متأهّبة، منهم من يهمّ بالانصراف، ومنهم من ينوي التوجه إلى غرفة الطعام.

كانت نهلة كالعادة قد تكفلت بإحضار الغداء إلى جدتها نزهة، وجلست إلى جانبها منتصبة متيقظة، يدور قمر عينيها مراقباً كلّ ما يدور من حولها. تحيّنت نورهان وجودهما معاً، فانسحبت وهي تنوي التوجّه إلى غرفتها لفتح الطرد. إلا أن معدتها التي انعقدت،

دفعتها تلقائياً إلى المطبخ، هرباً من الهرج والمرج السائدين في غرفة الطعام.

وقفت هنيهةً على الباب تشمل المكان بنظراتها، خياشيمها مفتوحة، الطاولة الكبيرة التي كانت موضوعة على بعد أمتار من الشبّاك المطلّ على الحديقة، أبعدت فألصقت بالحائط كي لا تعثّر حركة الخدم. سوى ذلك، كل شيء على حاله. البرّاد، فرن الغاز، الطناجر اللامعة مختلفة الأحجام مرصوفة على الرفوف الرخامية البيضاء، نملية المؤنة القديمة بدرفها المصنوعة من المنخل، حتى مستوعبات الزيت الزجاجية، لا تزال تحت فسحة الدرج المؤدي من المطبخ إلى غرف النوم العلوية.

كان هذا المطبخ يصبح بيدرًا للزيتون في تشرين فيحوّل العالم كله إلى أخضر. كان الزيتون يُفرش على شراشف بيضاء مخصصة لرصّه، تمدّ على الأرض، وكانت تاتا نزهة، عمتاها زهرة ونادية، وأمّ حسيب، زوجة الناطور، يجلسن على الأرض حول الشراشف لرصّه قبل تخليله. عشر أيادٍ، متفاوتة الألوان والأحجام والأعمار، تقوم بالحركة نفسها، بتناغم غير مقصود. كم كانت جميلة طريقة معاملتهنّ لحبات الزيتون، وحرصهنّ على ألّا تفلت من أيديهّن وتنتهي على الأرض. يمسكنها بأصابعهنّ وبمدقة الخشب يفقشنها على مهل، كأنهنّ يحككن رأسها. كانت الحبة التي تقع على الأرض، تُرمى جانباً. "طهارة الزيتون أهم شي"، كما كانت تسمع جدتها تنبّه الجميع، من وقت لآخر. كانت الحبّة وراء الأخرى تنتهي في طشتٍ أزرق كبير، وطشتٌ وراء آخر يمتلئ بحبات الزيتون، لترسو

بعد عملية تحضيرٍ طويلة، في مراطبين زجاجية شفافة كبيرة ممتلئة بالزيت والماء مع شرائح الحامض.

كانت أم منصور تحرص على تحضير كافة أنواع المؤونة للشتاء. تُحضّر الكثير منها إذ تخصّص بيت منصور بجزءٍ وافر، وترسل هدايا إلى الأقرباء. عادة حملتها معها من بيت والديها، تشبثت بها حتى عندما لم يبق سواها وابنتيها في البيت الكبير. ما زالت ذكرى قدور المربيات، دافئة في مخيلة نورهان، تغلي على النار ناشرةً روائح شهية، "تبقبق" بألوانها المختلفة، صفراء، حمراء، بنية، مصدرة أصواتاً دبقة تشبه ألوانها. "كنت أنا ونوار وسعيد ننهمك معهنّ"، تذكرت نورهان يلامسها ذلك الفرح القديم. توجّهت إلى خزانة المؤونة حيث كانت تُحفظ مراطبين المربيات ولبنة الماعز المكعزلة المكبوسة بالزيت، فتحتها فوجدت عدداً منها، مرتّباً تماماً كما في ذاكرتها.

تساءلت إن كان سيمرّ موسم الزيتون والمؤونة، في تشرين المقبل، إلى بيت تاتا نزهة، أم إنّ الموت أخذه معه، فدفن آخر المواسم مع رجل البيت الوحيد الذي رحل باكراً.

"بتريدي جبلك شي ست نورهان؟"، سألتها الخادمة، "شكرا... أنا فيي جيب لبريده... فيكي تناديني باسمي بلا ست"، أجابتها بلطف، وهي تأخذ مرطبان الزيتون الأسود ومرطبان اللبنة. علبة الخبز فوق البرّاد. ما زالت تحفظ هذا المطبخ عن ظهر قلب. أخذت رغيفاً منها وشوكة من الجارور المخصص لها. وضعت الرغيف على الطاولة. شقّت حصوص الزيتون بعناية. مسحت اللبنة على كامل

الرغيف ورتّبت فوقها حبات الزيتون ودلقت الكثير من الزيت بحركة دائريّة من يدها. "كانت سندويشة بابا المفضلة. "من إيد الحاجة أطيب لبنة وزيتون"، تتذكره يقول لأمه التي كانت أحياناً تحضر هذه السندويشة له دون أن يسألها.

جلست إلى الطاولة تقضم السندويش وتلوك ببطء. أحاطها هدوءٌ لذيذ. لم تنتبه لنظرات الخدم المستغربة. جلست مسترخيةً تحاول أن تبعد عنها كلّ ما يشغل فكرها، تتأمل فقط في طعم لبنة الماعز اللاذع ورائحتها المبطنة، المختلطة برائحة الزيت المتوهجة تنتشر في لعابها فتمدّها بنشوة وهي تسترجع النكهة القديمة النائمة تحت لسانها.

اليوم ثالث أبيها، يمكنها الرجوع في الغد إلى بيتها وحديقتها وعملها. أيام ثلاثة لا أكثر بدت لها أعواماً طويلة. بحيث تراءى لها أن فرشتها بردانة، مطبخها تفوح منه رائحة الهجران، حمّامها تشقق، عجلات درّاجتها فرغ منها الهواء. عليها أن تحسم أمرها وتحزم حقيبتها وترجع إلى حياتها الاعتيادية، لكن هناك تياراً قوياً يشدها إلى البقاء. فمنذ رجوعها لم يتسنّ لها التقرّب من عائلتها، حتى لقاؤها مع سعيد كان مبتوراً. هذا البعد الذي تسبّبت به سنوات غيابها الطويلة، شعرت به يخلق في كيانها فراغاً مؤلماً ليس بوسعها أن تحمله معها وترحل مجدّداً. فاجأها أن تحنّ إلى البيت في عين المريسة، حيث طفولتها، ومراهقتها، وغرفتها التي تركت فيها كلّ أغراضها التي انتقتها يوماً بنفسها، ولم تلمسها أو تتفحصها منذ دهور. طوال تلك السنين لم تفتقد ما خلّفته وراءها. لمَ اختارت كل هذا البعد؟

نهضت دون أن تلتفت إلى من حولها، كأنها كانت طوال هذا

الوقت وحيدة، وخرجت من باب المطبخ إلى الحديقة، متوجّهة إلى السلم المؤدي إلى غرف النوم، كي لا يراها أحدٌ من أهل العزاء. غي، وطرده القابع في غرفتها.

فاحت رائحة حنونة ما إن فتحت نورهان الطرد الذي وضعته لها ميساء على سريرها. تخلصت من الأوراق التي تلفه بعناية. وجدت محرمة قطنية وبداخلها قالباً من الخبز وبعض حبات الشوكولا المغلّفة. على المحرمة قرأت: "تعازيّ الحارّة، مع الحب"، مطرّزة باليد ومذيلة باسم روز، والدة غي. إنه الخبز بالجوز والزيتون الذي تتقن والدته تحضيره. عندما ذهبت معه مرة لزيارتها وتذوقته، عبّرت عن إعجابها بطعمه ونقلت طريقة تحضيره. لكن لم يتسنَّ لها أن تحضّره بنفسها.

شعرت بلطف مكتنز يغمرها مثل طعم الشوكولا الجيد الذي يتكشف ويتطور وهو يذوب في الفم. أغمضت عينيها وهي تضع الحبة الثانية داخل فمها، أطبقت لسانها تحركه عليها، حتى أخذت تذوب وهي تتلذذ بنكهتها تختلط بلعابها وتغلّف سقف حلقها، مستمتعةً برائحتها المنبعثة من داخل فمها إلى منخاريها. دغدغها شعورٌ لذيذ.

تراجع ذلك الطعم الاستثنائي، الدافئ، ليطغى عليه نشيجٌ عميق أطبق على صدرها تصحبه صورٌ مرتعشة تهتز في ذاكرتها وتندثر، مثل نفسها المخنوق المتلهّف إلى تدفق الهواء. علني أخرج الآن على أهل العزاء، علّ أحدهم يقوم بتظهير هذه الصور، فأعود وأسكن نفسي بسلام.

سمعت طرقات ناعمة على باب غرفتها. بقيت جالسة على طرف السرير تحاول أن تتلهى عنها، بأخذ أنفاس عميقة. لكن صوت أمها وصلها تطلب منها، بصوت أرقّ من طرقها، الإذن بالدخول.

كانت دلال تقف على الباب مرتبكة، مسدلة اليدين، تلوح على شفتيها ابتسامة خفيفة، في عينيها أسئلة تفتقر إلى أحرف، وحنانٌ فطريّ ساذج يذكّر بعيني الهرة المرضعة، تستحث هريراتها على الرضاعة، يكاد فمها يتحرك فيطبق لافتقاده الكلمات. ودخلت الغرفة بخطوات بطيئة عندما أشارت إليها نورهان بيدها تدعوها إلى الجلوس على السرير، بعد دقائق ترقب، فشلت في حضّ أمها على الكلام.

جلست دلال قرب نورهان، تردّدت كثيراً قبل أن تتجرأ على حضنها، وعندما أودعت نورهان رأسها على صدرها، مطلقة زفرة عميقة، شعرت دلال بحرارتها في قلبها، فأخذت تمسّد رأسها برفق. استسلمت نورهان لهذا اللقاء الحميم الذي لا تتذكر أنه حصل سابقاً بينها وبين أمها. لا تذكر أنها عانقتها إلّا في مناسبات الوداع أو اللقاء، كأن هناك جفاءً غير معلن بينهما، حان أوان ترطيبه. ارتعدت وهي تتنبّه إلى أنّ سجل حاسة الشم لديها خالٍ من هذه الرائحة العشبية الطرية، فدسّت أنفها في صدر أمها تختزنها، مطبقةً عينيها بإحكام علها تُخلي حواسها من كلّ ما عداها. تصاعدت وتيرة نفَسها، كطفل حديث الولادة، فحرّرت نفسها رويداً رويداً من حضن أمها، ثم نظرت إليها وما إن حرّكت شفتيها حتى باغتها السؤال: "ماما، بشو مرض نوّار؟".

انتفض جسد دلال وشحب وجهها، وتسمّرت على هذه الحال دون أن تتلفظ بكلمة واحدة. فأخذت نورهان يدها مكررةً السؤال، إلى أن شعرت بجسد أمها يرتجف، ورأت دموعها تنهمر، وصدرها يصدر شهقات متقطعة متتالية ما لبثت أن تحوّلت إلى أنينٍ متواصل أغمض عينيها وأرخى جسدها فطواه، جزءاً على آخر.

حاولت نورهان تهدئة أمها بضمّها إلى صدرها، بإحضار كوب ماء لم تنجح في جعلها تشربه، ببعض كلمات مرتبكة، بالشدّ على يدها، بالجلوس صامتةً لبرهة إلى جانبها، بضغطٍ متعاطف على كتفيها، بسؤالها كيف السبيل إلى مساعدتها على استرجاع هدوئها. محاولاتها كلها لم تجدِ نفعاً، إذ استمر ذلك الأنين المؤلم الذي أخذ يثير الريبة والقلق في نفس نورهان.

نهضت عن السرير وهي تشعر بجفافٍ في فمها، فسكبت لنفسها كوباً من الماء وأخذت تشربه وهي تذرع الغرفة بخطاها، ثم توجهت إلى الشباك، دفعت الستار، وفتحت درفتي الشباك على مهل، فصدر عنهما صريرٌ يشي بأنهما لم يُفتحا منذ زمن. التفتت نحو أمها علّ هذا الصوت ينجح في تنبيهها إلى ضرورة رفع هامتها، أو خفض أنينها، لكنها وجدتها لا تزال على حالها، كأنها انفصلت عن كلّ ما حولها.

احتارت نورهان بين أن تفتح الباب وتغلقه بقوة، في محاولة لإحداث صدمة لأمّها تعيدها إلى طبيعتها، أو أن تتركها على حالها حتى تهدأ من تلقاء ذاتها من هذه النوبة التي بدأت أسبابها تلتبس عليها. فما إن سألتها عن سبب مرض نوّار، حتى أصيبت بنوبة هستيرية، كتلك التي تصيب طفلاً عندما يعجز الكبار عن فهم مراده.

كانت نورهان كقنبلة جاهزة للانفجار، محشوة بكميات هائلة من الطاقة العصبية. توجهت- يصمّ أذنيها أنين أمها الذي أخذ ينقل إليها أنين نوّار، فيتراءى لها جسمه الواهن، ووجهه الخالي من روحه- إلى حقيبتها، تناولت منها حبّة مصنوعة من جذور الكافا التي تستعملها عندما تشعر بضيق في صدرها وابتلعتها مع قليل من الماء. وضعت حبة أخرى مع كوب من الماء على الأثاث الملاصق للسرير حيث تجلس أمها، على أمل أن تتناولها فتهدأ بدورها هي أيضا.

أخذت نورهان نفساً عميقاً وقالت بصوت منخفض: ماما في شي مخبيتيه عني؟

ذاهلةً، تعصر معدتها بكلتا ذراعيها كأنها توقف نزفاً أصابها، رفعت دلال جسدها ببطء، بعدما خفت أنينها، وتمتمت: شو قلتِ نورا؟

تيقّنت نورهان أنّ أمها تريد أن تبوح لها بأمر ما. عليها فقط أن تساعدها على فكّ رباط لسانها، ومؤكد أنها ستدلق كلّ ما في أحشائها. جلست نورهان وقد بدا أنّ دلال قد استرجعت بعض الهدوء، إلى جانبها على السرير، ووضعت يدها على كتفها، وسألتها بهدوءٍ ورجاء:

- قوليلي ماما، في شي ما بعرفه؟ خبريني، بشو مرض نوّار؟

ساد صمت يختزن خوفاً وتحدّياً، كذاك الذي يستبق وثبة في المجهول، أو كذاك الذي يخيّم على أهل المتهم وأهل الضحية معاً، قبل أن يطلق القاضي حكمه بالإعدام، أو بالبراءة. شعرت نورهان للحظة أنها في مواجهة فراغ مميت لن تنجو منه ما لم ترتطم فيه،

صمت كالبكم والصم، ووجعهم الذي لا يجد منفذاً للخروج.

تململت نورهان في موضعها لتذكّر دلال أنها ما زالت هنا، تنتظر. تنفست على مهل من دون أن تخرق هذا الصمت، وهي لا تزال تضع يدها برفق على كتف أمها، ناظرة ناحيتها، مخافة أن تثقل عليها بنظرة مباشرة.

أرادت أن تشعرها بأهمية الكلمة أو الكلمات التي عليها أن تخرجها من جوفها، كما يفعل محلل نفسي ماهر يخلي ساحة الكلام لمريضه، مهما طال سكوته. استجمعت دلال قواها، ودون أن تنظر في عيني ابنتها، قالت لها بصوت مبحوح متكسّر، ذكّر نورهان بصوت نوّار المجروح قبل أن يفارق الدنيا بقليل:

- أبوك نورا، هيدا أبوك... الله لا يرحمه.

خرجت كلماتها وغطّت جسد نورهان وروحها اللذين تحوّلا، في لحظة، إلى بياض مجسّم جليدي.

٧

كان كلّ شيء في رأسها مظللاً، الوجوه، الألوان، الجدران، الكلام، أثاث الغرفة. كلّ الأشكال اتخذت لها تجليات ملتبسة. لم يبق شيءٌ على حاله، إلا تلك الرائحة اللاذعة التي أطبقت على حواسها، قبل أن يغمى عليها. وكما يضيء البرق ظلمة الليل، كانت الصور المشؤومة تتكشف وتختفي في بئر ذاكرتها، وهي تعود إلى وعيها، بعدما باحت لها أمها بما باحت.

قامت وأقفلت باب غرفتها، حضنت ذاتها في سريرها، وهي تتهجأ ما كانت ذاكرتها تعرضه لها.

كان نوار على غير عادته، خلال الاحتفال في عيد ميلادها التاسع. لم يشاركهم تشكيل العجين الذي كان شغوفاً بعمله. أهداها أبوها آلة تصوير، مفاجأة لم تكن تتوقعها. كان قد وعدها بواحدة، عند بلوغها الثالثة عشرة. أهدتها أمها نظارة شمس حقيقية، إذ كانت تنتزع دوماً منها نظارتها، وتختال بها.

تتقلب في سريرها. نورهان في التاسعة من عمرها. يبدو نوّار مكسور الخاطر، ألأنه يريد أيضاً آلة تصوير؟ سأطلب من بابا أن يهديه

واحدة عندما يبلغ السابعة في أيار المقبل. ستسمح له أن يستعمل آلتها. لكنه يرتجف. أهو مريض؟ كان الاحتفال بعيد ميلادها تماماً كما تمنّته. أجمل من أعياد جميع رفاقها. لقد دعت أمّها صديقاتها اللواتي اختارتهن نورهان، لقضاء النهار معها. دعوت أيضاً زاهر، صديق نوّار المفضل. كانا الصبيّين الوحيدين. أحضرت لنا أمي، كما طلبت منها، كلّ ما نحتاج إليه لكي نحضّر البيتزا والبسكوت. كنت أتباهى أمام رفيقاتي لأنني أعرف أفضل منهن تحضير العجين وصنع أشكال منه. تدربت في مطبخ تاتا نزهة على الطبخ مبكراً. كلما ذهبت لزيارتها، تقول لي إنها ستعلمني سرّاً جديداً من أسرار الطبخ. ما بك نوار، لمَ تبدو غائباً هكذا؟ لم لا تنغمس كالعادة في قولبة العجين أشكالا جميلة؟

لم تعتد نورهان الذهاب إلى المدرسة وحيدةً مذ دخل نوّار إليها. عندما أصيب بجدري الماء، السنة التي فاتت، وتخلّف عن الذهاب، بقيت هي أيضاً في البيت بعدما اصطنعت المرض، فظنوا أن عدوى الجدري انتقلت إليها. وبالفعل، في اليوم التالي، ظهرت عوارض المرض جلية عليّ. كان نوّار يرجوني أن أحكّ له جلده المتقرّح، لأن أمّي حذرته من فعل ذلك كي لا تبقى آثار الحبوب على وجهه، "وجه الفرح" كما كانت تناديه.

صبيحة اليوم التالي لعيد ميلادها، أرادت اصطناع المرض أيضاً، لكي تبقى معه حين وجدته طريح الفراش. لكن نوار أدار وجهه بعيداً عنها، دون أن ينطق بكلمة. كأنه لم يعد يحبني. شعرت أني مشوّشة كثيراً. طوال النهار، لم أقدر على تمالك دموعي. إنها المرة الأولى

التي يتجرأ فيها أحد رفاقها على السخرية منها. "pleurnicharde"، أخذوا ينادونها. لم تستطع الدفاع عن نفسها.

"أصبحت عيناك كصحراء قاحلة"، قالت لي تاتا نهلة، "رح تسقطي من عيني نورهان!". وافقها أبي. كانا يتوافقان في معظم الأحيان، كما لو كان أحدهما ريحاً، والآخر رمالاً. لم أدرك تماماً ما تعنيه بالسقوط من عينها، لكني فهمت أن بكائي أمرٌ معيب. ولم أكن قد رأيت صحراء، لكن التعبير أخافني، وخصوصاً أن جفنَي أمي أصبحا، بعد مرور أيام كثيرة على مرض نوار، متنفخين. عيناها تكادان تفارقان محجريهما. أصبحت أخاف النظر إليهما، وأكّد لي أبي أنّ البكاء لا يليق بفتاة متفوقة مثلي، يعوق الرؤية والتقدم، وعليّ مهما حصل، أن أفصل بين مشاعري تجاه أيّ أمرٍ يحصل، وبين ما عليّ إنجازه كلّ يوم. يجب أن أكون منيعة، فالحياة للأقوياء.

انعقد شيءٌ ما في جسد نورهان الصغيرة وهي تستمع إلى جدتها وأبيها. شعرت أنها باتت تمتلك مفاتيح يقتنيها الكبار فقط. لم تبك في اليوم التالي، وشيدت حولها في المدرسة سوراً لم تسمح لأحد بالاقتراب منه، باستثناء ميساء.

لم أبك قطّ بعد ذلك اليوم. بلت في بنطالي على مقعدي في المدرسة، بينما كنت أشدّ على نفسي كي لا أبكي، ورسبت في الفصل الثاني. استدعى الأمر اجتماعات كثيرة بين أبي ومعلماتي. لكن نوّار كان لا يزال مريضاً، يلازم الفراش.

– كفاك خنوعاً، ستصبحين البكّاءة السادسة، أنت تفسدين كلّ جهد بذلته لكي أحصّن ابنتي، أنت تهشّمين جذور القوة في

شخصيتها. لقد رسبت ابنتي! لا تعرفين إلّا البكاء، لن تشفي ابنك به، أنا الذي يعمل ويكدّ ويجد له أمهر الأطباء لمعالجته.

كان أبوها ينعت أمّها ويسخر منها، كما فعل بها رفاقها في المدرسة. استغرب عندما سألته عن البكّائين، ظنها كانت نائمة عندما كان ينهر أمّها الصامتة والبكّاءة. لكنه أجاب عن سؤالها. كانت واثقة أنه يملك جواباً لكلّ أسئلتها، وربما لكلّ الأسئلة. جلس إلى جانبها باسماً، وأخبرها أنه قرأ في ما قرأ، أنه كان هناك بكاؤون خمسة، آدم الذي بكى على فقدانه الجنة حتى اكتسى وجهه بالشقوق، ويعقوب الذي بكى يوسف حتى ذهب بصره، ويوسف الذي بكى يعقوب حتى تأذى الناس من بكائه، وفاطمة التي بكت أباها رسول الله حتى ضجّ من بكائها أهل المدينة، وكذلك الأمر مع علي بن الحسين الذي بكى على أبيه عشرين سنة أو أكثر.

ولمّا كانت رغبتي واضحة أن أعرف أكثر عن هؤلاء الذين بكوا كلّ هذا البكاء كما تفعل أمي، أجلسني في حجره مواجهةً له، وأخذ يقصّ عليّ قصصهم، وأكّد في النهاية بسخرية، أن البكاء لا ينفع بشيء، إلا إلحاق الأذى بالنفس وبالآخرين. كنت أنظر في الأرض. الحق يقال أنني تأثرت كثيرا بقصص هؤلاء، لكني غالبت نفسي كي لا أبكي، لم أرد أن يسخر مني أبي، أو أن "أسقط من عينه". ولم أسأله السؤال الآخر الذي كان يحيّرني، لماذا يدعوني، كلما تكلم مع أمي، "إبنتي"، في حين يدعو نوّار "إبنك".

أصبح أبوها يغيب عن البيت أكثر من عادته بعد مرض نوّار. تزايدت وتيرة سفراته إلى الخارج، بسبب عمله، كما أوضح.

كان يرجع مع ألعاب كثيرة. أحضر لنوّار لعبة "النظام الشمسي في غرفتي"، إذ كان نوار مفتوناً بالكواكب ويريد أن يزورها جميعها عندما يكبر، كما فعل الأمير الصغير. لم يهتمّ نوار بكل تلك الكواكب التي علّقت في غرفته. كان يبدو كجرو رُجم بحجارة ثقيلة وبقي حياً بأعجوبة، مكبّلاً في وجعه، رأسه يكاد يغرق في جسده كأنه يحمي نفسه استباقاً من خطر سيداهمه في أي لحظة. صار ينتفض هلعاً كلما اقترب أحدٌ منه، حتى أنا! ولم ينجح حضن أمه في مدّه بالشعور بالأمان الذي بدا كأنه فقده إلى الأبد. شحب لونه، وانطفأ ضوء عينيه. كان كأنه يختفي رويداً رويداً. أيمكن أن يكون نوّار قد توقّف عن حب الأمير الصغير؟

ذات مرة، اقتربت منه على مهل، كأنني أمثل على المسرح، مكررة قول الأمير الصغير، "والنجوم تجعلك دائماً تضحك". هللت عندما سألني أن أقترب منه أكثر، إذ ظننت أنه قرر أن يكلمني من جديد. لكنه همس في أذني أن أحضر له من الخزانة الرشاش الذي تلقاه كهدية، ثم تركه منسياً في خزانة الألعاب. كان نوّار يفضل أقلام التلوين، والمعجون، وبناء بيوتٍ من المكعّبات والرمال المبللة بماء البحر.

هرعت تبحث عن الرشاش، ما كان يهمها هو أن يعود نوّار للعب، حتى بالرشاش الذي كانت تكره صوته. أحضرته له، وجّهته ناحيته، وهي تقوم بقفزات حربية رأت الصبيان يقومون بها. استجمع قواه الخائرة، أخذ الرشاش، جاهد وهو يفتح عينيه إلى أقصى حدودهما، إلى أن قفز منهما غضب جعل نورهان ترتجف، صوّب الغضب والرشاش إلى الكواكب، ثم أرخاه من يديه، وارتخى على الفراش

كدمية من قماش. بدا كأنه لن يفعل شيئاً آخر بعد الآن. أطفأ المرض حتى الكواكب التي كان نوّار يتطلع لزيارتها. لم تعد الحياة لعبة جميلة نلهو بها أنا وإياه. اشتقت للعب معك. ماذا حلّ بك نوّار!

شعرت بالفطرة أن نوّار في خطر، كرهت نفسي وأنا أقف حائرةً أمامه، بينما حياته تهتزّ أمامي. أفكار معذبة تحتشد في دماغي الصغير، أسمع ضربات قلبي تتصاعد، أنفاسي ثقيلة من الخوف، من القلق، من الشعور بالعجز من فعل ما يخفف من وجعه، يجعله يلهو، يقفز، يملأ الدنيا فرحاً كما كان. ليته على الأقل يتكلم معي، كما طلب مني الطبيب أن أحاول، لكنّ المرض سرق من نوّار كلامه العذب أيضاً.

– ماذا حلّ به؟ أما من علاج لمرض فقدان الشهية الذي أصابه بعدما التقط الفيروس؟

كلّ ما سمعته من أمي لم يزوّدني إلا بشعور أكبر بالعجز، ليس لأنها لم تطمئني بإمكان شفاء نوّار، بل لأنها كانت تبدو مثله، كجروٍ خائف معذب.

الليل لم يعد للنوم ولا لأحلام الطفولة الهانئة، أصبح بكائي مخصياً من الدموع، مثل "حورية البحر الصغيرة" وقد حُكم عليها أن تتعذب أكثر لأنه لم يكن في محاجرها دموع. تشاركني في تختي النحاسي عفاريت بغيضة وتسكن وراء ستار شباكي الأصفر المطرز بأسماك من جميع الألوان، تمنعني من الذهاب إلى الحمام ليلاً، فأبول في فراشي. أستفيق وأنا آمل أن يكون كلّ ما يحصل، مجرّد حلم يشبه قصة من القصص التي كان يسردها أبي علينا قبل أن يمرض نوّار. أهبّ من سريري متمنية أن أذهب إلى غرفة نوّار فأجده ينتظرني كعادته لكي

أغني له، فيقفز من السرير.

هناك شبحٌ يا ميساء، شبح وراء الستار، شبح في غرفة الجلوس، شبح في غرفة نوار، شبح في الحمام. لا أقدر أن أراه، لكنه موجود، متأكدة أنه موجود، أسمعه يحاول ألا يصدر صوتاً وهو يتأرجح على الكرسيّ الهزاز، أسمعه وهو يحاول أن يكون هادئاً وهو يقرقع الأواني في المطبخ، يفتح الأبواب، ويمشي على الشرفة. قد يكون واقفاً على باب غرفتي. أختنق وأنا أختبئ تحت اللحاف كي لا يراني. لم يعد هناك هواء في قلبي، أتوسل الهواء بأن يهبّ عليّ، أسمع كلاباً تعوي في صدري، أخاف أن يَستَدِلّ الشبح من أصواتها على مخبإي. قم نوّار نطرد الشبح معاً، لا تتركني وحدي!

لم تستطع نورهان أن ترسم الشبح، لم تستطع رسم الكابوس، كما طلبت منها المعالجة النفسية أن تفعل، إذ أكدت لها أنها بذلك تثبتهما على الورق، وتسجنهما في الدّرج، فلا يرجعان إلى نومها أو بيتها. كلما حاولت، نجحت في رسم الإبرة العملاقة، في رسم نوّار يرتعد خوفاً وقد صوّبها هذا المارد إليه. لكن ملامح المارد تختفي، ما إن تهمّ برسمها، كأنه ساحر يختفي حين يشاء. ويقع القلم من يدها إذ تبدأ ترتجف وتعجز يداها الصغيرتان عن رسم مخلوق بهذا الحجم، والورق لا يتّسع له.

ذات ليلة، سمعت نوّار يصرخ موجوعاً، فقفزت من سريرها غير عابئة بالشبح. وقعت أرضاً إذ تعثرت بالسجادة، نهضت بسرعة وهرولت إلى غرفته، فتحت الباب، فوجدت أباها قد سبقها...

تسمّرت مكاني. لم يكن أبي يرتدي بنطال بيجامته، كانت ساقاه

عاريتين، كقدمَي حيوانٍ مكسوّتين بالشّعر. ربما يكون هذا وحش تقمّص وجه أبي، كما تتقمص الساحرات وجوهاً نعرفها كي تغرينا بالاقتراب منها، تكسب ثقتنا كي تنال منا وتؤذينا.

ظلمة. ظلمة. لم أعد قادرة على أن أرى شيئاً. أهوي في بئر مظلمة عميقة. أفتح فمي لأصرخ علّ أحداً يأتي لنجدتي، غير أنني أسمع فقطً صوت الصفير المختنق في صدري. وما من هواء، أشعر ببرد قارص، ربما إنني أموت مثل بائعة الكبريت. اين أبي؟ أين أمي؟ إنني أموت، لن أقدر على تخليص نوّار من هذا الوحش.

استيقظت في سرير أمي الكبير ولا أذكر كيف أصبحت في سريرها. كأنّ شيئاً حدث لتوّه، ومحي تماماً من ذاكرتي. أشعر بألم في رجلي، وأشتمّ رائحة سمكٍ قوية، أو قيئاً، أو مزيجاً منهما. تشمّمت نفسي لكي أتأكد من أنّ هذه الرائحة لا تصدر مني. كابوس، ورائحة زنخة لازمت أنفي، طوال هذه السنين، دون أن أقدر على تحديد مصدرها. الملمس الحريري لفستان نوم أمي الذي تركته على طرف السرير، والذي لامسته بيدي وأنا أبحث عنها وما زلت مغمضة العينين، أفرح قلبي وغيّر مزاجي. سحبته بيدي، ووضعته على جسدي وحضنته كأنني أحتضن قطة ذات فرو فائق النعومة. قفزت من السرير وخلعت بيجامتي القطنية، وارتديت فستان النوم، ووقفت أمام المرآة، تارةً أثنيه من أطرافه، وتارة أخرى أشدّه حول جسدي كي لا يسقط عني.

كنت مقرفصة أحشر نفسي في خزانة أحذيتها، أحاول أن أجد حذاء عالياً لها أرتديه، علني لا أتعثر بذيل الفستان وأنا أتبختر به،

عندما سمعت الباب يُفتح بكثير من التمهل. شهقت أمي ما إن رأتني، شهقة أسمعها ثانية لكن لا أعرف كيف أصفها، عيناها تباعدتا، واحدة عن الأخرى، كأنه لم يعد هناك ما يستحق النظر إليه إذ وجدتني بخير بعدما أضاعتني لزمن طويل.

لكن الحبور عند أمي كالألعاب النارية الفاسدة، ما إن تبدأ بالإشعاع حتى تنطفئ. سرعان ما شعرت بدموعها تبللني وقد حضنتني، كما لم تحضني مرة من قبل. وبصوت رطب، قالت: نوار مريض جداً، ستذهبين وحدك إلى المدرسة اليوم. منذ ذلك اليوم، أصبحت أجد أن ملابس أمي آخذة بالتشبه بها. غادر الفرح الحرير الناعم، كما غادر كلّ البيت.

"ارجعي نورهان بسرعة إلى سريرك، بسرعة"... هكذا نهرني عندما رأيته في غرفة نوّار. كيف نسيتِ نورهان؟ كيف نسيتُ؟

ذات صباح، استيقظت أنا، استيقظَت ماما، استيقظ بابا.

نوّار لم يستيقظ.

٨

باكراً، قبل صلاة الفجر، تركت نورهان السرير في بيت جدتها. وضّبت حقيبتها التي أحضرتها معها من باريس، ومن غير أن تنتعل حذاءها، ومن دون أن تنظر إلى المرآة، أو تغسل وجهها، أو تفكّ رباط شعرها، فتحت باب غرفة النوم التي رفضت أن تغادرها منذ دخول أمّها إليها البارحة.

مع ملامسة قدميها برودة الأرض، شعرت بخدر يغادر تدريجاً جسدها، بدءاً من أطرافها. أغلقت باب غرفتها، وعبرت الصالون على مهل. شعرت أن ظلالاً تلاحقها، فاستعجلت خطاها. مسحت الحديقة بعينيها، وألقت نظراتها سلاماً على بيت سعيد. وثبت الكلبة عليها تلاعبها. ملّست نورهان على رأسها دون أن تنظر إليها، وتابعت تشق طريقها من الحديقة إلى البستان. والليل ساكن هادئ إلا من ريح خفيفة، ورطوبة التراب تزيح آخر ما تبقى من دبيب الخدر تحت جلدة رأسها.

توجهت نورهان إلى الجبّانة المتاخمة للبستان، المقابلة للبحر، في يدها حقيبة سفرها، وعلى ذراعها محفظتها. أرادت أن تزور،

كما عزمت، قبر أبيها.

لم تتأخر نورهان في العثور على الأضرحة التي تعود لآل سلمان، تعرفت إليها من الأسماء المحفورة على شواهد تدير وجوهها ناحية شروق الشمس. كان هناك قبرٌ فتيّ، لم يطبق عليه الرخام، ولم ينصّب عليه، بعد، الشاهد الدالّ على صاحب الجثة الراكنة داخله. هذا قبر أبيها. اقتربت منه بخطى ثابتة، ببرودة، بعينين فارغتين. وضعت حقيبتها من يدها، أسدلت ذراعيها فوقعت محفظتها على الأرض.

مرّ وقت قبل أن تحسّ بالهواء الساخن الذي بدأ يحوم حولها مع اقتراب الفجر، ببتلات الأشجار تتطاير وتحط على رأسها، بالندى يقطر على شعرها، وبرائحة شجر الدفلى المحيط بالمدافن، بشذاه الملتبس نتيجة عشرته للقبور. لم تعد تشعر برطوبة الأرض تحت قدميها، ولا بارتعاش جسدها، كان هناك فقط الشهقات المكبوتة تحتشد في صدرها، والدموع المعمِّرة التي أخذت عيناها الواسعتان تضيقان بها.

بقيت تشهق حتى سكبت كلّ دموع طفولتها وشبابها. كانت شهقاتها ترتفع شيئاً فشيئاً، كموج يتقدّم في المحيط، يرتطم بسدّ، فيتكسّر وينفلش زبداً.

تناهى أخيراً إلى مسمعها صوت دوري الفجر، فنفضت رأسها، تنفست عميقاً حتى ملأ الهواء قلبها. شعرت أنها تتنفس للمرة الأولى، كأن تفريغ شهيقها المكبوت أخلى مكانه للهواء. تلفتت حولها. تهيّأ لها أنّ كلّ هذه المدافن التي تحيط بها والتي لا يصل نظرها إلى حدود انتشارها، قبور أطفال يتوسطها قبر وحيد كبير، ذلك الذي

تقف قبالته. اصطكّت رجلاها، أخذت ترتجف، شعرت بماء كثير ساخن يجري بين فخذيها، وصل إلى أخمص قدميها العاريتين، بلّل التراب تحتهما، فانغمستا في التراب.

تناولت حقيبتها، واستدارت.

كانت آثار أقدامها الصغيرة تتبعها على الرمال، بدا ظلها إلى جانبها كولد صغير يرافقها، وهي تتجه نحو الشاطئ، فيما الشمس تطلّ برأسها ببطء، من وراء الجبال.

أسقطتْ حمولتها من يديها، خلعت تنورتها الرطبة. كانت، وهي تتقدّم في مياه البحر، ترسل نظرها إلى آخر خطّ في الأفق.

عادت نورهان إلى بيروت بعد غياب اثني عشر عاماً لحضور مأتم والدها.

بين عين المريسة حيث بيتهم، والقرية الجنوبية حيث الدفن ومراسم العزاء، تحضرها صور الماضي: الأب الوسيم وفارس الأحلام، الأم المنطوية على حزن دفين، الجدة نهلة سيدة الأعمال الناجحة ونجمة السهرات، والجدة الأخرى العجوز الطيبة التي لم تعرف من الحياة سوى بيتها وكتاب صلاتها...

لكن الكابوس الذي كان يؤرق ليالي طفولتها عاد يراودها مجدداً: شخص يحمل إبرة عملاقة يوجهها إلى صدر شقيقها نوّار...

زينب شرف الدين صحافية وكاتبة لبنانية. تعمل في الإذاعة اللبنانية منذ العام ١٩٩٧، ولها مساهمات في صحف ومجلات لبنانية وعربية.

أنجزت هذه الرواية في اطار 'محترف نجوى بركات' في دورته الثالثة (٢٠١٤-٢٠١٥)
بالشراكة مع برنامج'آفاق لكتابة الرواية' في دورته الأولى (٢٠١٤-٢٠١٥).

ISBN 978-6-14425-908-5

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com

9 786144 259085 >

AFAC آفاق

محترف